سورة التكوير

مكية، وهي ثلاثون آية مع البسملة

لقد نزلت قبل الهجرة بست سنوات أو أكثر قليلا على ما يبدو. فعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾. (مسند أحمد ص ٢٧، والترمذي كتاب التفسير، والمستدرك للحاكم، كتاب التفسير، وروح المعاني)

يتضح من هذا الحديث أن هذه السورة ترسم لنا مشهد يوم القيامة رسمًا مفصلا، بحيث يتراءى يوم القيامة أمام الأنظار.

ما هو المراد من يوم القيامة هنا؟ أهي تلك القيامة التي تقوم بعد فناء الجنس البشري كله أم غيرها؟

فليكنْ معلوما أن لفظ القيامة قد ورد في القرآن بعدة معان، حيث أُطلق على القيامة التي سيُبعَث فيها الناس جميعا ويُحشَرون بعد الموت. كما أُطلق هذا اللفظ على بعثة نبيّ، أو هلاك أعدائه، أو غلبة أتباعه. إن بعثة نبي قيامةٌ من حيث إنها تتسبب في انكشاف شتى الكفاءات الكامنة في الناس. عندما يظهر نبي تبرز للعيان قوى الخير وقوى الشر الكامنة في قومه، فيقع بمجيئه حشرٌ في العالم، و تنشكف القوى الكامنة في النفوس، وهكذا يكون النبي بمنـــزلة يوم القيامة لهم. وعلى سبيل المثال كان رسول الله ﷺ نفسه سببًا في تحوُّل أبي بكر إلى ما صار إليه، وفي تحوُّل أبي جهل إلى ما صار إليه. كان أبو جهل يسمى أبا الحكم من قبل، ولكنه لما رأى ذلك الكائنَ الروحاني العظيم ازداد بغيًا وطغيانًا وإصرارا للقضاء عليه إذ وجد في ظهوره موتًا لقواه الطاغوتية، وبالتالي ظهر لنا (أبو الحكم) في تلك الصورة التي

نكرهها اليوم جميعا. ولو لم يُبعث النبي ﷺ وقابل الناسُ أبا الحكم فربما وُصف في التاريخ كأحد رؤساء العرب الشرفاء، ولكنّ شخصية النبي ﷺ النورانية الغالبة هيّجت في أبي الحكم قواه الطاغوتية، فانكشفت نجاسته الخفية على العالم. كذلك لو لم يُبعَث النبي ﷺ وقابلَ الناسُ أبا بكر رضي الله عنه فربما وُصف في التاريخ كأحد تجار العرب الشرفاء الأمناء، ولكن إيمانه برسول الله ﷺ أدى إلى ظهور حسنه الروحاني بحيث لا تجد الدنيا كلها مناصًا من الثناء عليه حتى اليوم. فثبت أن ظهور النبي ﷺ هو الذي جعل أبا بكرٍ أبا بكر وأبا جهلٍ أبا جهل.

ونجد مثالاً على ذلك في عصرنا هذا أيضا، فلو لم ينبرِ المولوي محمد حسين البطالوي أو المولوي ثناء الله الأمرتسري لمعارضة المسيح الموعود عليه السلام لذكَرهما التاريخ كعلماء مسلمين عظام، ولظلَّ عداؤهما الخفي للحق طيَّ الكتمان. أما الآن فيعرف المرء بقراءة كتاباتهما أنهما أرادا القضاء المبرم على الحق بمجرد رؤيته. ولم يحصل هذا الانقلاب فيهما إلا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون ذلك فما كانت قوى الشر الكامنة فيهما لتظهر للعيان. أو لولا بعثته عليه السلام لوصفنا المولوي نور الدين رضي الله عنه كواحد من العلماء الكبار والأطباء الحُذّاق المشفقين على الفقراء، ولم نرَ فيه فضيلة أكثر من ذلك.

باختصار، إن بعثة نبي نوع من أنواع القيامة.

ثم إن ساعة هلاك أعداء نبي تُعتبر قيامةً أيضًا؛ لأن من معاني القيامة الموت، فقد قال رسول الله ﷺ: من مات فقد قامت قيامته. (مجمع بحار الأنوار لمحمد السندي: تحت كلمة القيامة، وتشييد المباني الحديث رقم ٢٧٦، والمقاصد الحسنة للسخاوي، الحديث رقم ١١٨٣). فما دام موت شخص واحد يسمى قيامة، فموتُ قوم أحقُّ أن يسمى قيامة. ويقول الشيخ محمد طاهر السندي عن لفظ القيامة: "وقد ورد في الكتاب والسنة على ثلاثة أقسام؛ القيامة الكبرى والبعث للجزاء، والوسطى وهي انقراض القرن، والصغرى وهو موت الإنسان." (مجمع بحار الأنوار: القيامة)

وهذا ما يؤكده القرآن ويصدقه، بل إنه قد ألقى ضوءاً أكثر على لفظ القيامة والساعة – علمًا أن هذين اللفظين يُستعملان بمعنى واحد– حيث تكشف لنا دراسة القرآن الكريم أن لفظ القيامة يُطلق فيه على المفاهيم التالية:

١– رقي أمة نبي ٢– دمار أعداء نبي ٣– انحطاط أمة نبي بعد رقيها.

وقد ورد المعنى الأول في قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:٢). بسبب معجزة انشقاق القمر توجد عند المسلمين فكرة شائعة أن هذه الآيات تشير إلى تلك المعجزة، مع أنه ليس فيها ما يؤكد أنها تشير إلى تلك المعجزة فقط، ذلك لأنها تذكر انشقاق القمر ضمنيًا، إذ تعتبره دليلا على اقتراب الساعة. فسواء اعتبرنا انشقاق القمر بمعنى زوال حُكم العرب، أو بمعنى تلك المعجزة الشهيرة التي أظهرها الله على يد رسوله ﷺ؛ حيث رأى المؤمنون والكافرون القمر وكأنه قد انشق، فإن من المؤكد أن القرآن قد استدل بانشقاقه على اقتراب القيامة. ومعلوم أن القيامة الكبرى التي سيشمل فيها الدمار العالَم كله ويُبعث فيها الناس مرة أخرى لم تظهر حتى اليوم، رغم مرور قرابة ١٣٧٠ سنة على ظهور تلك المعجزة. ومعلوم من الأحاديث أن المسيح والمهدي سيظهران في هذه الأمة، وسيزدهر الإسلام على أيديهما، فلو أن المسلمين الذين لا يزالون ينتظرون ظهورهما – على عكس عقيدتنا– قدّروا زمن ظهورهما وما بعده سبعة قرون أيضًا، فهذا يعني أن القيامة ستقوم بعد ألفي سنة من هذا الإنذار من اقترابها في سورة القمر، وفي هذه الحالة يصبح إنذار كفار مكة من اقتراب الساعة أمرًا عبثًا، بل أضحوكة. وبعيد عن عظمة القرآن أن ينذر كفار مكة قائلا: أيها الكافرون ستُدمَّرون، ويصبح الإسلام غالبا، ثم يصيبه ضعفٌ يستمر قرونًا، ثم يظهر بعدها المسيح، فيجعل الإسلامَ غالبا ثانية، ثم بعد ازدهاره الذي يستمر مدة طويلة سيزدهر الكفر مرة أخرى، وعندها سيدمر الكون كله، فها نحن ننذركم من ذلك اليوم الذي سيأتي بعد ألفَي سنة فقط، وذلك برغم أنه سيكون قد مرّ على فنائهم وانمحاء أي أثر لهم ألفا سنة!!

هل من عاقل يعرض مثل هذا الأمر على الناس يا ترى؟ فكيف يُعزى إلى الله الذي هو أعلم العالمين ما لا يحب المرء عزْوَه إلى نفسه؟ فثبت جليًّا أن المراد من اقتراب

الساعة هنا هو غلبة الإسلام. والثابت من كلام العرب أيضًا أن القمر يرمز إلى حُكم العرب أو رئيسهم✪. فالحق أن الله تعالى قد أرى الكافرين والمسلمين معجزة انشقاق القمر أولاً، ثم فسرها في القرآن قائلاً: لقد رأيتم معجزة انشقاق القمر التي هي بمثابة إنذار باقتراب انتهاء حُكم الكافرين، واقتراب غلبة الإسلام التي ستكون بمنـــزلة القيامة لأعداء الإسلام. إذًا فقد ثبت من هنا أن الساعة أو القيامة في هذه الآية لا تعني إلا زمن غلبة الإسلام وازدهاره.

كذلك قال الله تعالى في سورة الممتحنة مستنكرًا ما كان يفعله بعض المسلمين أحيانا من إبلاغ أخبار إخوانهم إلى الكفار، فقال لهم محذّرًا: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۞ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الممتحنة:٣-٤)

والمراد من ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هنا القرار الذي صدر يوم فتح مكة وبعده في هذه الدنيا، والذي ميّز بين الكافرين والمؤمنين. فهؤلاء الكافرون سابقا لم يستطيعوا الإسهام في رقي الأمة، بل أضرّوا بالمسلمين يوم حنين، حيث تسببوا في فرارهم. ولما نادى العباس بأمر النبي ﷺ يا معشرَ الأنصار، أين أصحاب بيعة الرضوان، إن رسول الله يناديكم، رجع الأنصار وقدّموا تضحية غير عادية حتى انقلبت هزيمة المسلمين فتحًا (السيرة لابن هشام، غزوة حنين)، ولكن هؤلاء المسلمين الجدد.. الكافرين قبل الفتح.. لم يتوقفوا إلا بعد أن وصلوا إلى مكة. فما دام مضمون هذه الآية قد تحقق

✪ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: رَأَيْتُ ثَلاثَةَ أَقْمَارٍ سَقَطْنَ فِي حُجْرَتِي، فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. قَالَتْ فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدُفِنَ فِي بَيْتِهَا قَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: هَذَا أَحَدُ أَقْمَارِكِ وَهُوَ خَيْرُهَا. (الموطأ، كتاب الجنائز)

"كانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضتْ رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنّينَ مَلكَ الحجاز محمداً؟! فلطَم وجهَها لطمةً خضَّر عينَها منها. فأُتي بها رسولَ الله ﷺ وبها أثرٌ منه، فسألها: ما هو؟ فأخبرتْه هذا الخبر." (السيرة لابن هشام، المجلد الرابع، ذكرُ المسير إلى خيبر، أمرُ صفية أم المؤمنين)

في هذه الدنيا بشكل كامل دونما تأويل أو توجيه، فلا داعي لتطبيقه على القيامة التي تكون بعد الموت.

كذلك قال الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة:٢١٣). ويوم القيامة المذكور هنا إشارة إلى يوم فتح مكة وغيره من الأحداث المماثلة التي وقعت في هذه الدنيا. أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿والَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارةً إلى يوم القيامة والحشر الذي يكون بعد الموت، فلا يستقيم المعنى، إذ (أولاً): ليس هذا القول حجة على الكافرين، إذ لا جدوى من الاستدلال بحادث يقع بعد الموت، ومن ذا الذي سيؤمن بمثل هذا الدليل؟ والإيمان بعد الموت لا قيمة له ولا نفعَ. و(ثانيا): ستعني هذه الآية – في هذه الحالة – أن المسلمين لن ينالوا الغلبة في هذه الدنيا، بل بعد الموت. وهذا باطل بداهة، بل قد أصبح المسلمون غالبين في الدنيا نفسها يوم فتح مكة وفي المعارك التالية.

ولو قيل إن الله تعالى يقول هنا ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وهذا لا يمكن إلا في الحياة التي تكون بعد الموت فقط، فالجواب أن للرزق بغير حساب مفهومين: الأول أن يُؤتى المرء أكثرَ من عمله، والثاني أن يحسن المرء استعمال الرزق حتى لا يحاسَب عليه؛ لأنه يحاسَب حين لا يؤدي واجبه كما ينبغي. فقد ورد في الحديث عن عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا هَلَكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا عُذِّبَ. (البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب). إذًا فكون المؤمنين يُرزَقون بغير حساب يعني أنهم سينفقون ما أُوتوا إنفاقًا صحيحًا، فينجون من طائلة الحساب. وكلا المفهومين للحساب قد تحقق للمسلمين في الحياة الدنيا، فأُعطوا فيها بغير حساب دون أن ينتظروا القيامة التي تكون بعد الموت ليُعطوْا فيها بغير حساب. لا شك أن تضحياتهم كانت جسيمة، غير أن الجزاء الذي أعطاهم الله تعالى كان أكثر من تضحياتهم بكثير،

حيث صار رعاةُ الغنم والإبل ملوكَ العالم كله، ونال هذا الشعب المقهور المغلوب مُلكًا عظيمًا قويًا. كما نالوا الرزق ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بالمفهوم الآخر أيضًا؛ فقد أحرزوا التقوى والورع بحيث لا تزال الدنيا تثني عليهم حتى اليوم. لقد نالوا الرزق الكثير، ولكنهم لم يضيعوه إسرافًا وبذخًا، بل أنفقوه إنفاقًا أدى إلى صلاحهم في الدنيا وثوابهم في الآخرة. خلاصة الكلام أن يوم القيامة هنا يعني زمن غلبة الإسلام؛ إذ أصبح المسلمون غالبين على الكافرين في هذا "اليوم" نفسه، كما أُعطوا الرزق بغير حساب أيضًا.

للمزيد انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة النور، والآية ٤٩ من سورة ص، والآية ١٠ من سورة الزمر.

ثم في سورة القيامة أيضًا قد ذكر الله تعالى نوعين من القيامة؛ إحداهما تتعلق بهذه الدنيا والأخرى بالآخرة. وقد ذُكرت إحداهما في قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(القيامة ٨-١٠). والواضح أن خسوف القمر وكسوف الشمس ليسا من علامات القيامة التي تقوم بعد فناء البشر جميعا، بل هما من علامات ظهور المهدي المسعود بحسب ما ورد في الحديث. فثبت من ذلك أن القيامة المذكورة هنا هي قيامة إحياء الإسلام في الزمن الأخير، لا القيامة التي تقوم بعد هلاك البشر جميعا.

وهناك آيات عديدة أخرى قد استخدم فيها القرآن الكريم لفظ القيامة والساعة بمعنى انقلاب عظيم حاصل في هذه الدنيا. والقيامة المذكورة في الآيات قيد التفسير أيضًا هي قيامة هذه الحياة الدنيا - كما سيتضح لاحقًا - حيث يحيي الله تعالى المسلمين بعد موتهم الروحاني، وسوف يتجدد الإسلام بعد انمحاء آثاره، وقد ذُكرت علامات هذا الزمن الأخير في هذه السورة وفي التي تليها.

وكما أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ القيامة أو الساعة بمعنى انقلاب عظيم في هذه الدنيا، فقد ورد هذا اللفظ بالمفهوم نفسه في الأحاديث الشريفة أيضًا حيث ورد أن جبريل جاء مرة إلى النبيّ ﷺ وأصحابه بصورة إنسان وسأله: مَتَى الساعة؟ فقال ﷺ: ما المسئولُ عنها بِأَعْلَمَ مِن السائلِ، وسأُخْبِرُك عَنْ أَشراطِها: إذا وَلَدَتْ

الأَمَةُ رَبَّها، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمِ فِي البُنيانِ. (البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل)

وقد ظهرت هذه الأشراط زمنَ ازدهار العباسيين، حيث اقتنى أكثر ملوكهم الجواري والإماء، فصارت أولادهن ملوكًا، وقُضي على حُكم العرب بسبب أقارب هؤلاء الجواري. وكذلك ترك العرب حياةَ الجِدّ والكدّ والتضحية والسفر وأقاموا في المدن وانهمكوا في بناء المباني العالية.

وورد في حديث آخر أن شخصا حضر مجلسَ رسول الله ﷺ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّه ﷺ يُحَدِّثُ... حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَن السَّاعَة؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِه فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. (البخاري، كتاب العلم، باب مَن سُئل علمًا).. والأمانة هنا أمانة الحُكْم، والقيامة هنا وقت انحطاط المسلمين وهلاكهم.

وورد في حديث آخر: "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا." (البخاري، كتاب العلم، باب رفْع العلم). والمراد من قوله ﷺ: "وَيَظْهَرَ الزِّنَا" أنه ستكثر البغايا، ويتفاخر الناس بفواحشهم في المجالس. والمراد من القيامة هنا أيضًا زمن انحطاط الإسلام.

وورد في حديث آخر: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزلازلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ؛ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيض." (البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات). وقوله ﷺ "ويتقارب الزمان" إشارة إلى تطوُّر علم التاريخ، فكأن أحداث الأزمان المختلفة تصبح قريبة. أما قوله ﷺ: "حتى يكثر فيكم المال فيفيض" فهو إشارة إلى كثرة المال وحياة البذخ والإسراف. وهنا أيضًا قد سُمّي انحطاط المسلمين قيامة.

وهناك حديث آخر يقول فيه رسول الله ﷺ: لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُم الشَّعَرُ، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا كَأَنَّ وُجُوهَهُم المَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ. (البخاري، كتاب الجهاد، باب قتال الذين ينتعلون الشعر). هذا الحديث يشير إلى

هجوم التتر على المسلمين، وفيه إشارة إلى أن انحطاطهم سيبدأ بهجمات التتر عليهم.

وفي حديث: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، يَعْنِي إِصْبَعَيْنِ" (البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي بعثت أنا والساعة كهاتين).. أي أن زمني متصل بالساعة كاتصال إصبعين. ولكن رغم انقضاء ثلاثة عشر قرنا على زمن النبي ﷺ لم تقم الساعة حتى الآن!! فثبت من ذلك أن الساعة هنا بمعنى آخر، وهو رقي الإسلام وازدهاره. والمراد من قوله ﷺ هذا أن كثيرًا من الأنبياء لم تزدهر أُممهم إلا بعد وفاتهم بفترة طويلة، ولكن الله تعالى قد وعدني بازدهار الإسلام في حياتي. وهذا ما حصل فعلا. وهناك حديث آخر: "مِن اقْتِرَابِ السَّاعَةِ هَلاكُ الْعَرَبِ." (الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل العرب). وهذا هو المعنى لقوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

باختصار، قد ورد لفظ القيامة في القرآن والحديث بعدة معان: بمعنى القيامة الكبرى، أي التي ستظهر بفناء البشر جميعًا أو بحشرهم مرة أخرى؛ وبمعنى ازدهار قوم أو زوال قوم أو موت شخص. فقول الرسول ﷺ إن "مَنْ سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين، فليقرأْ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾" لا يعني أن هذه السور إنما تتحدث عن القيامة التي ستكون بعد فناء البشر جميعا فقط؛ ذلك لأن القرآن الكريم قد استخدم لفظ القيامة بمعانٍ عديدة، فيجوز للرسول ﷺ أيضًا أن يستخدمه بمعان مختلفة.

باختصار، إن قول الرسول ﷺ هذا إنما يعني أن هذه السور ترسم مشهد القيامة رسمًا مفصلا بحيث تتراءى أمام أعيننا. وسيتبين من تفسير هذه السورة لاحقًا أن ما قاله الرسول ﷺ كان صدقًا وحقًّا.

علاقة سورة التكوير بالسور السابقة:

إن علاقة هذه السورة بسورة عبس بل بالسور السابقة الأخرى تكمن في أن تلك السور تتحدث عن غلبة الإسلام والقيامة الكبرى. وكان من المقدر أن يغلب الإسلام مرتين على الأقل؛ كما كان من المقدر أن يُبعث الرسول ﷺ مرتين. والقيامة التي قامت على يد الرسول ﷺ كان لها مظهران كبيران كما هو بيّنٌ من

سورة الجمعة، حيث قامت هذه القيامة في زمن الرسول ﷺ أولاً، وكان من المقدر أن تقوم ثانيةً بعد ثلاثة عشر قرنًا، أي بعد انقضاء فترة ضعف الإسلام الممتد لألف سنة بعد فترة رقيه الأولى. ويتضح من مواضع أخرى في القرآن أيضًا أنه كان من المقدر أن يضعف الإسلام كما قال تعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٦)، حيث بين الله تعالى أنه سيُنْزِل أمر الإسلام من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه تعالى خلال ألف سنة. وتخبرنا الأحاديث أن ازدهار الإسلام في زمن الرسول ﷺ سيستمر ثلاثة قرون (البخاري، كتاب الرقاق، باب من يحذر من زهرة الدنيا). فإذا أضفنا إلى هذه القرون الثلاثة ألفَ سنة من ضعف الإسلام أصبح وقت انتهاء هذا الضعف عام ١٣٠٠ من الهجرة؛ أي قرابة عام ١٨٨٦✪ الميلادي. وحيث إن الله تعالى قد نبّأ أولاً عن غلبة الإسلام، ثم عن فترة ضعفه، فكان لزامًا أن يبين أيضا ماذا سيحصل بعد الضعف كيلا يستولي اليأس على المسلمين فتنهار هِمَمُهم.

وورد في الحديث أن أحد كبار علماء اليهود – أبا ياسر بن أخطب – مرَّ في رجال من اليهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فواتح سورة البقرة ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، فأتى أخاه حُيَيَّ بنَ أخطب، فقال: تعلمون والله، لقد سمعتُ محمدًا يتلو فيما أُنزلَ عليه ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾! فقال: أأنت سمعتَ؟ فقال: نعم. فمشى حُيَيٌّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، ألم يُذكر أنك تتلو فيما أُنزلَ عليك ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾؟ قال: بلى.

✪ الحاشية: لو حوّلنا ١٣٠٠ سنة قمرية (هجرية) إلى الشمسية تصير عندنا عام ١٨٨٦ الميلادي. ذلك أن النبي ﷺ قام بالهجرة عام ٦٢٢ الميلادي، وإن الـ ١٣٠٠ سنة القمرية (الهجرية) تساوي تقريبًا ١٢٦٤ سنة شمسية، و ٦٢٢ +١٢٦٤= ١٨٨٦ – وإذا تركنا السنوات الزائدة فهي سنة ١٨٨٥ – و ١٨٨٦ هي السنة التي بشر الله تعالى فيها مؤسسَ الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام بفتح الإسلام ثانية وبتأسيس جماعة على يده ستعمل على تقوية أساس الإسلام، وبولادة ابن عنده خلال تسعة أعوام سيذيع اسم الإسلام في أنحاء العالم كله. وذلك الابن المولود هو صاحب هذا التفسير بفضل الله ومشيئته، الذي أُدليت النبوءة بولادته في بداية عام ١٨٨٦ التي جاءت تصديقًا للنبوءة القرآنية. والله غنيٌّ لا يُسأل وهم يُسألون. (المفسر)

فقال: لا ضيرَ، فإنك لو صرتَ غالبا فستستمر غلبتك لواحد وسبعين سنة، لأن الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة. وسوف نصبر هذه المدة، لأن غلبة دينك تنتهي بعده. فقال له رسول الله ﷺ: لقد نزل عليّ غيرُه أيضًا؛ وهو ﴿المص﴾. فقال حُيي: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة. ولا ضير، وإن كانت هذه المدة أطول. فقال النبي ﷺ: إنّ معي غيره، وهو ﴿الر﴾. فقال: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان. فقال النبي ﷺ: إن معي غير ذلك أيضًا، ﴿المر﴾. فقال: هذا أثقل وأطول. الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان. ثم توجّه حُيي إلى أصحابه وقال: هيّا بنا نذهب، فقد تشابهَ أمره علينا.

(فتح البيان: سورة البقرة، قوله تعالى ﴿الم﴾، والسيرة لابن هشام، ما نزل في أبي ياسر وأخيه)

إذًا، فالعدو حين يسمع نبوءة ضعف دينٍ يقول في نفسه: إن هذا الدين سيضعف في يوم من الأيام، وسوف نصبر على زمن غلبته بطريق أو بآخر، لأنه سينقضي لتأتي بعده أيام غلبتنا ثانية. فلذلك نجد أن النبي لا يكتفي بالإنباء عن ضعف دينه، بل ينبئ أيضا أنه سيأتي بعد الضعف والانحطاط نبي آخر يمهد لرقي أمته وغلبتهم ثانية. لا شك أن كل رقيّ مقرونٌ بالانحطاط، وهذا قانون جارٍ منذ الأزل، ولكن النبي لا يكتفي بالإخبار عن فترة الانحطاط، بل يبشر أيضًا بفترة جديدة من الرقيّ، وهكذا يخبر أنه سيموت، ولكن ملّته لن تنمحي أبدًا، فإذا جاءت على دينه فترة من الانحطاط، فسوف تليها أيام غلبة دينه على الكفر ثانية. وهكذا يجعل الله تعالى الكفر يائسًا من الغلبة دائما، ويثبت قلوب المؤمنين بألا ييأسوا، بل يجب أن تبقى هممهم عالية وعزائمهم قوية ونظراتهم مسدّدة، لأن الإسلام سيصبح غالبا مرة أخرى، وسوف يقع الكفر في الحضيض ثانية. هذا هو الفرق بين كلام الله وكلام البشر، وأنّى لغير الله تعالى أن ينبئ عن ترقيات بلا نهاية؟ كلا، بل إن الله وحده يعلم الغيب، وهو وحده القادر على تحقيق مشيئته التي يخبر بها أحبته، لكي يوصلوا هذه الأنباء إلى الآخرين، لتكون هذه الأنباء سكينة لقلوبهم. لا شك أن فترة

الانحطاط قد جاءت بعد موسى وبعد عيسى وبعد رسول الله ﷺ أيضًا، ولكن كل نبي ينبئ حتمًا عن كل تراجُع، حتى إذا جاءت فترة الانحطاط أصبحت آية على صدق النبي. أما لو أصيبتْ أمة بالانحطاط من دون نبوءة سابقة فيمكن أن يعتبره الناس مصادفة، ولكن لو كان هناك نبأ سابق بالانحطاط لجاز للمؤمنين أن يقولوا إن هذا الانحطاط أيضًا دليل على صدقنا، لأن هناك أنباء سبقتْ عنه. ولكن لو اكتفى النبي بالإنباء عن الانحطاط دون خبر الرقي بعده، لاستولى اليأس على قلوب المؤمنين. ومن أجل ذلك ينبئ النبي عن الانحطاط من ناحية لكي تشكل فترة الانحطاط بحد ذاتها دليلا على صدق النبي، ومن ناحية أخرى ينبئ عن الرقي بعد الانحطاط ثانية، ليطمئن المؤمنون ويأس الكفر من ازدهاره الدائم. إذا كان هذا الرقي منوطا بنبي فيخبر الله تعالى عن بعثته، وإذا كان منوطًا بشخص آخر، فيخبر عنه.

على أي حال، يتبع الله تعالى هذا الأسلوب الرائع لتقوية قلوب المؤمنين ورفع معنوياتهم. وقد جربتُه بنفسي تجربة رائعة. وقد بينت هذا الأمر في كتابي (دعوة الأمير)*، فقلت إن المصائب التي حلَّت بالإسلام اليوم قد سبق أن أنبأ عنها الرسول ﷺ في حديثه بالتفصيل. وما دام ﷺ قد أخبر عن هذا الانحطاط قبل ١٣٥٠ سنة، بل بشَّر بفترة من الرقي بعده أيضًا، فلا داعي ليأس المسلمين. فكلما طالت فترة الضعف هذه نقول: هذا ليس تكذيبًا للإسلام، بل هو تصديق للرسول ﷺ إذ قد أخبر عن ذلك سلفًا. وهناك مثال لذلك في القرآن الكريم أيضا، حيث ورد في سورة الأحزاب أنه لما اجتمعت جنود الكافرين للهجوم على المسلمين أخذ المنافقون يعيّرونهم قائلين: أين وعودكم عن الانتصارات المادية؟ فازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(الآية ٢٣).. أي أن رسول الله ﷺ سبق أن أخبرنا بذلك، فنحن فرحون على أنه تعالى قد حقق وعده. فما الداعي للحزن والقلق؟

* تُرجِمَ هذا الكتاب إلى العربية وطبع باسم "دعوة إلى الحق". (المترجم)

فتلاحظ أنهم لم يصبهم فزع بسبب هذا الوعد، ولكن لولا هذا الوعد فلربما أصابهم الفزع والاضطراب. إذًا فالأمر الذي يخوف به العدو المؤمنين قد جعله الله تعالى سببًا لتقوية إيمانهم، حيث يقولون ما دام الله تعالى قد أخبرنا في كلامه سلفًا عن هذا الضعف الذي يصيبنا، فلماذا نخاف ولماذا نقنط؟

فما يصيب المؤمن من بلاء بحسب أنباء الله السابقة فإنه يشحنه بقوة هائلة، لأن تلك المصائب تأتي تحقيقًا لكلام الله تعالى. أما إذا لم تصبه هذه الآلام، فإن نفس العدو الذي يعتبرها دليلا على بطلان الإسلام سيقول له: إن نبيكم كان قد أخبر بهذا، ولكن نبأه هذا لم يتحقق. ولكن المؤسف أن هذه الأنباء حين تتحقق، وتأتي فترة الضعف والانحطاط، فإن العدو يعتبرها دليلا على بطلان هذا الدين، مع أنها دليل على صدق الدين، ودليل على صدق النبي، ودليل على هزيمة الكفر، لأنه كما تحقق كلام الله تعالى عن رقي الدين، كذلك قد تحقق كلامه عن ضعفه. وإثبات هذا الأمر هو الواجب الأول للدين.

إذًا، فهذه حكمة بالغة، لو استوعبها المرء لم يتزعزع إيمانه في زمن ضعف الدين واضمحلاله، بل تظل قدمه ثابتة على صخرة قوية من الإيمان. إنه يدرك أن دينه حق في كل حال. كان حقًّا في أيام الغلبة، وهو حق في أيام الضعف؛ إذ سبق أن أُنبئَ عن ضعفه سلفًا. ولكن المؤسف أن المسلمين لم يدركوا هذا الأمر ووقعوا فريسة لليأس. لقد شرحتُ هذا الأمر -إلى حد ما- في كتابي (دعوة الأمير)، فبيّنتُ أن أنباء ضعف الإسلام في حد ذاتها دليل على صدقه وصدق القرآن؛ إذ وردت مفصّلةً في القرآن والحديث سلفًا. ثم إن الإسلام لم يكتف بأنباء ضعفه، بل أنبأ أيضا أنه سيصبح غالبًا بعد فترة الضعف ثانية، وأن الكفر سيُكبّ على وجهه مرة أخرى، وأن محمدًا رسول الله والقرآن سيصبح غالبا على الدنيا من جديد. فهذا الضعف يتضمن بشارة عن الرقي أيضًا، وهذه الظلمة تنبئ عن طلوع الشمس، فلماذا يقنط المسلمون إذن؟ ولماذا لا يتدبرون بحسب الوعود الإلهية ولماذا لا يبحثون عن ذلك النور السماوي، حتى يعلموا أين طلعت تلك الشمس الموعودة التي ستبدِّد هذه الظلمة.

لقد مررت بتجربة عجيبة فيما يتعلق بما ذكرت آنفا. لقد قابلني في دهلي زعيم من منطقة "سَرْحد" واسمه شودري فقير محمد، وكان يعمل مهندسا في شركة، فقال لي: نحن أربعة إخوة، اثنان منا أحمديان، واثنان ليسا بأحمديين، وأنا لم أنضمّ إلى جماعتكم بعد. فسألته عن سبب ذلك، وقلت: أتشكّ في صدقها؟ وكان في طبعه مزاح فقال: الواقع أني لم تتح لي فرصة التدبر في الأحمدية بعد، غير أننا قوم عادلون. لقد أعطيناكم نصف روبية، وأعطينا المسلمين الآخرين نصف روبية. فأجبتُه على سبيل المزاح: ولكنا لن نرضى بنصف روبية، بل نأخذها كلها. قال: فخُذْها بتأثيرك الروحاني إن استطعتَ. قلت: سنسعى لذلك، وسيعطينا الله نصف الروبية الآخر إذا شاء. وكان الرجل ذاهبًا مع عياله إلى إنجلترا للسياحة، فقال: إن أحد إخوتي هو "خان محمد أكرم خان" القاطن في مدينة "جارسده"، وضع في حقائبي بعض كتبكم عندما خرجت من البيت. فقلتُ له: إني ذاهب للسياحة، ولن أجد وقتا لقراءتها، ولكنه وضعها في حقيبتي رغمًا عني، ولم أتمكن من قراءة أي كتاب منها حتى الآن.

ثم ذهب هذا الرجل إلى إنجلترا، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى وصلتني رسالة بدأها بقوله: قبل أن أكتب مطلبي أُريد أن أُعرّفكم أنني ذلك الشخص نفسه الذي قابلكم في القلعة المَلَكية في دهلي قبل ثلاثة أشهر، وقال لكم: إننا قوم عادلون؛ حيث أعطيناكم نصف الروبية، وأعطينا المسلمين غير الأحمديين نصفها، فقلتَ: ولكننا لا نرضى إلا بالروبية كاملة. والآن وبحسب أمركم أُهدي لكم ربعًا آخر من تلك الروبية، وأنضم إلى جماعتكم مبايعًا على يدكم. ثم أشار في رسالته إلى المعنى الذي قد بيّنته الآن، وقال: جئت إلى إنجلترا وزرت معالمها، فرغم أني من الأفغان وأتمتع بحماس ديني، إلا أنني كلما رأيت قوة الكفر المتزايدة ازداد قلبي يأسًا، وقلت: لقد انهار الإسلام وتقوّى الكفر بحيث لا أمل في أن يتقوى الإسلام وينهار الكفر مرة أخرى. لقد مات الإسلام، وليس الأمل في حياته إلا ضربا من الوهم والخبل. هذه هي الأفكار التي ظلت تغزو عقلي باستمرار فيئستُ حتى أيقنت أن الإسلام لن يغلب على الدنيا مرة أخرى. وفي أحد الأيام أخذت هذه الفكرة من نفسي كل

مأخذ، فقلت لنفسي في هذه الحالة من اليأس والقنوط: تعال انظرْ في الكتب التي قد وضعها أخوك في حقائبك. وكان أول كتاب وقع في يدي هو "فلسفة تعاليم الإسلام"، فقرأته. ثم بدأت أقرأ كتابك "دعوة الأمير"، حتى وصلت إلى الصفحات التي تناولتَ فيها نفس القضية التي ملأت قلبي يأسًا إلى أقصى درجة؛ أعني ضعف الإسلام واضمحلاله. لقد أشرتَ إلى نبوءات عديدة للنبي ﷺ وقلت قد سبق أن تنبأ ﷺ عن ضعف الإسلام في نبوءة كذا وقد تحققت، وفي نبوءة كذا وقد تحققت أيضا. ثم ذكرتَ نبوءات النبي ﷺ عن ازدهار الإسلام ثانية، وقلتَ: ما دامت أنباء النبي ﷺ المتعلقة بضعف الإسلام قد تحققت، فكيف لا تتحقق أنباؤه المتعلقة بازدهاره وغلبته؟ فلما قرأتُ هذا امتلأ قلبي فرحة وسرورا وزال منه اليأس، ولمعت فيه بارقة الأمل، وقررتُ أني لن أخلد إلى النوم ما لم أكتب لك رسالة بيعتي، وها أنا أكتبها قبل النوم، فأرجو قبولها.

فالحق أننا عندما ندرك أنه سبق أن أنبأ الرسول ﷺ عن هذه المصائب والآلام التي صبّت على الإسلام والمسلمين، نجد في هذه الآلام نفسها راحة، ونقول: ستتحقق أخبار غلبة الإسلام أيضًا كما تحققت أخبار ضعفه واضمحلاله.

ثم إن تحقق هذه الأنباء يشكل دليلا على يوم القيامة أيضا، لأن الله هو الذي يحيي النفوس الميتة في هذه الدنيا، فكيف يُتصور أن يعجز عن إحيائها في الآخرة؟ ما دام موت هذه النفوس وإحياؤها -روحانيا- ممكنًا بحسب هذه الأنباء في هذه الدنيا، فلا بد من إحياء الموتى في الآخرة بحسب ما أنبأ الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

كُوِّرت: كَوَّرَ العمامةَ على رأسه: لَفَّها. وكوّر فلانا: صرَعه. وكوَّر المتاعَ: جمَعه وشدَّه ولفَّه على جهة الاستدارة. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: إذا الشمس لُفَّتْ، أو: إذا الشمس صُرعتْ. أما إذا اعتبرنا الشمس هنا شمسًا مجازية، واعتبرناها أحد الناس، لسهل علينا إدراك مفهوم الآية، وهو أن هذه الشمس المجازية سوف تُلَفُّ كما يُلَفّ المتاع في حزمة مستديرة وتوضع جانبا، ولا يلمَسها أحد.

كما يمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ بحذف مضاف وهو الضوء، والمعنى: إذا لُفَّ ضوء الشمس، أو: إذا مُحِيُ ضوء الشمس وجُعلت مختفية عن الأنظار مثل الحزمة التي تُلَفّ وتوضع بعيدًا عن الأنظار.

التفسير: حينما يقرأ الإنسان المعنى الذي نفسر به هذه الآيات مع مفهوم الآيات التالية يعلم أنه هو المفهوم الحقيقي والصحيح، وليس في تفسيرنا أي تكلف. لقد قلتُ هذا لأن البعض قد يستغرب عند قراءة تفسيرنا للآية الأولى من سورة التكوير. لقد تحدث المسيح الموعود عليه السلام في كتبه عن تفسير هذه الآية، كما أن تفسيرها يقدَّم من قِبل جماعتنا عادة، فالذين يسمعون كلامنا فإنهم لن يجدوا في تفسيرنا هذا أي تكلف، ولكن الذين لم يتيسر لهم الاطلاع على كتب جماعتنا، أو لم تتح لهم فرصة كافية لسماع أقوالنا فيستغربون منه في أول وهلة، ولكنهم عندما يتدبرون في الآيات كلها، سيدركون أنه ليس في تفسيرنا هذا أي تكلف، بل هذا نفس ما بينه الله تعالى في هذه الآيات.

ليكنْ معلومًا أن الله تعالى قد سمّى الرسول ﷺ في القرآن الكريم شمسًا (الأحزاب:٤٧)، وقد أخبر الله تعالى هنا أنه سيأتي زمن ستكوَّر فيه الشمس وتُلَفُّ،

وعليه فالمراد من هذه الآية أنه سيأتي زمان لن يتبع فيه المسلمون الرسول ﷺ، بل يتبعون آراءهم، معرضين عن تعاليمه ﷺ ليس بقلوبهم فحسب بل بأعمالهم أيضًا، فيستغنون عن الاقتداء به ﷺ في حياتهم العملية. وهذا المشهد يمكن أن يراه المرء اليوم في كل مكان. إن المسلمين لا يكادون يأبهون لفهم تعاليم الرسول ﷺ والعمل بها. إنهم لم يكونوا يعملون بالقرآن من قبل، أما اليوم فقد تركوا العمل بحديث رسول الله ﷺ إلى حد كبير. وإذا كانوا يعملون بأحاديثه ﷺ فلا يتعدى ذلك التقليد الشكلي؛ إذ أهملوا روحها ومضمونها، ولذلك لا يتجلّى نور النبي ﷺ على العالم. إن نور النبي ﷺ لا ينحصر في غسل الأيدي إلى المرافق ومسح الرأس عند الوضوء، بل هو في العمل بكل ما أمر به الرسول ﷺ في كل مجالات الحياة الإنسانية. وهذا هو الأمر الذي يجعل وجه المرء يلمع كالشمس ويجعله يسرع الخُطا إلى الدرجات العلى. ولكن المسلمين لا يشعرون كيف أنهم يسترون عن أعين العالم النور الذي جاء به الرسول ﷺ. لا شك أن هناك طائفة يسمون أنفسهم "أهل الحديث"، ويظنون أنهم العاملون بأحكامه ﷺ، ولكن البركات التي أتى بها النبي ﷺ لا تتجلى بواسطتهم؛ إذ يهتمّون بظاهر تعاليمه ﷺ عموما ولا يتوجّهون إلى مغزاها ومضمونها. ثم إن أكبر ما أتى به الرسول ﷺ لهداية الناس هو القرآن الكريم، ولكن طائفة "أهل الحديث" يبذلون أقصى جهدهم لأن يجعلوا القرآن تابعًا للحديث. فكأنهم يظهرون أمرًا ويسترون أمرًا آخر. كان الرسول ﷺ مظهرا للقرآن الكريم وللحديث معًا لكونه شمسًا، ولكنهم يمحون أحدهما محوًا تامًا، وبالتالي يستحيل القول إنهم سيتسببون في انكشاف النور الذي جاء به الرسول ﷺ للدنيا. فالمسلمون لم يعودوا تابعين للشمس الروحانية التي خلقها الله تعالى لإنارة العالم. ففرقة "أهل القرآن" حين يتناولون قضية العلاقة بين القرآن والحديث يحاولون جاهدين إبطال الحديث النبوي كلية، ولا يقبلون في تفسير القرآن إلا ما اخترعته أذهانهم. بينما يحاول "أهل الحديث" أن يجعلوا القرآن تابعًا لأفكار رُواة الحديث. وكلا الأمرين يحول دون تجلّي نور النبي ﷺ على العالم.

باختصار، إن لقوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ مفهومين: أولهما: أن المسلمين سيتركون الاقتداء برسول الله ﷺ ويتبع كلٌّ منهم رأيه، وثانيهما: أن الأنوار المحمدية سيتوقف تجلّيها، وسيصبح المسلمون - الذين كان واجبهم نشر نور النبي ﷺ في العالم إلى أقصى حد - سببًا في انكماش نوره ﷺ بدلاً من كشفه ونشره.

ومن معاني قوله تعالى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ محوُ ضوئها، وعليه فالمراد أن الشمس ستظلم، أي تنكسف. وهذه إشارة إلى النبوءة الشهيرة المذكورة في حديث الرسول ﷺ: "إن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلقِ السماوات والأرض: تنكسف القمرُ لأول ليلة من رمضان وتنكسف الشمسُ في النصف منه، ولم تكونا منذ خلَق اللهُ السماوات والأرض" (الدارقطني، كتاب العيدين، باب صلاة الخسوف والكسوف).. أي أن هناك آيتين على صدق مهدينا لم تظهرا لصالح أي مدعٍ منذ خلق الله السماوات والأرض، وهما خسوف القمر في أولى ليالي انخسافه في رمضان، وكسوف الشمس في اليوم الوسط من أيام انكسافها في رمضان نفسه.

لا شك أن هذه السورة تتحدث عن الشمس فقط، لكن الأحاديث تتحدث عن خسوف الشمس والقمر كليهما. علمًا أن من أساليب القرآن واللغة العربية حذف أحد الأمرين المتلازمين في بعض الأحيان، فحيث إن نبوءة خسوف الشمس والقمر مذكورة في مكان آخر من القرآن (القيامة: ٩-١٠)، فاكتفى القرآن بذكر كسوف الشمس دون خسوف القمر في الآية قيد التفسير، لكونه تابعًا للشمس. ومثاله أننا إذا أردنا ذكر الحر والبرد معًا، اكتفينا بذكر أحدهما معتبرين أن المخاطَب يفهم القصد. فهنا أيضا قد ذكر الله تعالى أحد جزئَيْ النبوءة لكونه يشير إلى الجزء الآخر تلقائيًا، فلم تبق هناك حاجة إلى ذكره منفصلا.

وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

النجوم: النجم: الكوكبُ؛ ما نجَم من النبات على غير ساق وهو خلافُ الشجر. والنجم: الأصلُ.. يقال هو من نجمِ صدق، وكذلك يقال ليس لهذا الحديث نجم، أي أصلٌ. وجمعُ النجم أَنْجُمٌ وأَنجامٌ ونجومٌ ونُجُمٌ. (الأقرب)

انكدرتْ: انكدرَ في سيره: أسرعَ وانقضَّ، يقال انكدرَ يعدو. وانكدرَ عليه القومُ: انصبّوا. وانكدرت النجوم: تناثرتْ. وكدَر يكدُر وكدِر يكدَر كَدَرًا وكَدارة وكُدورا وكُدروة وكُدرة: ضد صفا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.. أي تصبح غير صافية. وإذا اعتبرنا النجوم هنا استعارة، فيراد بها أشخاص كانوا سببًا لهداية الناس. فكأن الله تعالى يخبر هنا أنه سيأتي يوم تصبح فيه هذه النجوم منكدرة، لأن فيوضها ستنقطع ولن يعود الناس ملتزمين بهدايتهم.

التفسير: أولاً: قال النبي ﷺ: "أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم". (تشييد المباني: رقم الحديث ٥٩). وحيث إن الشمس هنا الرسول ﷺ، والنجوم صحابته، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ يعني أن الناس لن يتهاونوا في العمل بتعاليم الرسول ﷺ فحسب، بل لن يتبعوا صحابته أيضًا، معرضين عما تركوا وراءهم من علوم ومعارف. وهذا هو المشهد الذي نراه في هذا العصر. فنجد أن المسلمين إذا أرادوا ضرب مثال على شيء فلا يقولون إن الصحابة قالوا كذا، بل يقولون إن هتلر قال كذا، ونابليون أعلن كذا، وإن لينكولن قال كذا، في حين أن المسلمين السابقين كانوا يقولون: هكذا قال أبو بكر، وهذا ما أشار به عمر، وهذا ما أعلنه عثمان، وهكذا قال عليّ رضوان الله عليهم أجمعين. إذًا يخبرنا الله تعالى هنا أن المسلمين لن يهتموا مطلقا باتباع خطوات الصحابة. يقال بالإنجليزية: حياة أي أمة تتوقف على تمسكُّها بتراثها (Traditions).. أي لا ترجى حياتها ما لم يدرك كل فرد منها أن عليه الحفاظ على تراثها. هذا هو دستور الأمم الحية؛ فإن كل فرد

منهم يسعى جاهدا لإحياء أفعال آبائه، ويقول كان أبي يقول كذا، وكان أبي يفعل كذا، وكان جدي يعمل كذا. فإذا حافظت الأمة على هذه الروح طالت أيامها، أما إذا ماتت في أفرادها هذه الروح ماتت. فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَت﴾ يعني أن محاسن الصحابة وفضائلهم لن تنعكس في أعمال أفراد الأمة، ولن يُرى لها تأثير فيهم، وبالتالي ستضيع من ذاكرتهم روايات تفوق هذه الأمة أيضًا، وستندثر من بينهم الروايات البطولية للأمة، التي تنمّي الأخلاق وتوسّع الآمال. عندما يُذكَّر أفراد الأمة مرة بعد أخرى أن آباءهم كانوا ذوي محاسن ومزايا عظيمة، فإنهم يسعوْن للتقدم والازدهار، ولكن لو قيل لهم إن آباءكم كانوا جاهلين غير صالحين لشيء، فلا يرغبون في الرقيّ، بل لا يعودون صالحين للتقدم. والحق أنه لم يحلّ هذا الدمار الشديد بالإسلام والمسلمين إلا لأن تراثهم القومي العظيم صار طيّ النسيان وفُصلوا عن ماضيهم المشرق واختفت عن أنظارهم محاسن الصحابة والقادة الآخرين الذين اتبعوهم بإحسان. وقد عملت كتب التاريخ التي ألّفها الأوروبيون خاصة على تدمير هذا التراث الإسلامي العظيم؛ فليس هناك سلطان مسلم إلا ورماه هؤلاء الأوروبيون بالتّهم وقدّموه أمام العالم بأسوأ صورة وأبشعها، والنتيجة أن كل طالب مسلم حين يقرأ هذه التواريخ يظن أن آباءه لم يكن فيهم أي خير ولا ميزة، فينسب كل عيب إلى آبائه، وكل خير إلى الأغيار. وهكذا يصبح جذر رقي الأمة مسوّسًا نَخِرًا؛ إذ من المحال أن تحيا أمة في الدنيا من دون إحياء تراثها وتقاليدها القومية. إن أسهل طريق لتدمير أمة هو أن تجعلوا أبناءها يسيئون الظن بماضيهم؛ إذ يصبحون بذلك كشجرة اجتثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، ولن تحيا أبدا. إن الأوروبيين قد لجأوا إلى هذا السلاح سهل الاستعمال فشوّهوا تاريخ الإسلام كله. فإذا ذكروا أكبر سلاطين المسلمين وصموه بشتى العيوب. والأدهى أنهم يسمّون هذا بحثًا وتحقيقًا، فيدّعون أنه قد ثبت بعد تحرّي الأمر أن فلانا من الملوك المسلمين كان فيه كذا وكذا من النقائص. والحق أن كل ما يقولونه هو كذب في كذب. وقد أدى هذا التشويه إلى أنك لو سألت أحدا من المسلمين عن السلاطين المسلمين فستجد أنه لن يرى في أسلافه هؤلاء أي خير وفضل. سيقول

كان محمود الغزنوي لصا، وكان أورنغزيب غاشمًا، وكان في فلان كذا وكذا من العيوب، وفي فلان كذا وكذا من النقائص. وكأنهم لا عمل لهم إلا إحصاء عيوب الأسلاف ورميهم بالتهم. لقد فقد هؤلاء أي أمل في أن يجدوا في الأسلاف أية محاسن. وبسبب هذا العيب لم يعد في المسلمين رواج لسرد الوقائع البطولية، فقُطع دابر رقي الأمة.

إن هؤلاء الغربيين يلجأون، من أجل تنفير المسلمين من آبائهم، إلى حيل لا يلجأ إليها أي شريف أبدا. مثلا إذا ذكروا سلطانا مسلما قالوا إنه كان يشرب الخمر، ولا يذكرون هذا الأمر إلا لإثارة المسلمين ضده ولتنفيرهم منه. مع أن هؤلاء الأوروبيين يشربون الخمر ليل نهار، ويأتون شتى المنكرات الموبقات دونما وازع ولا رادع. إن كل فرد منهم شارب خمر، وملِكُهم شارب خمر، ورئيس وزرائهم شارب خمر. كان تشرشل يشرب الخمر وكان روزفلت يتعاطاها، ومع ذلك إذا ذكروا سلاطين المسلمين فلا بد أن يرموهم بتعاطي الخمر. نسلِّم أن بعض ملوك المسلمين كان شارب خمر، ولكنكم لا تذكرون ذلك إلا لتنفّروا المسلمين منه، ولتقنعوهم بمحاسن ملوككم، مع أنهم كانوا يشربون الخمر ويرتكبون المنكرات أكثر من أي ملك مسلم بآلاف المرات.

باختصار، لقد أنبأ الله تعالى بقوله ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أن التاريخ الإسلامي سيصبح مكدَّرًا، وأن محاسن المسلمين ستُخفى وتُمحى، وسيبدو أن النجوم قد انكدرت.

ثانيا: ومن معاني النجم الأصل؛ فقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ يعني أن الأصول ستخرب.. بمعنى أن الموازين ستنقلب وتختلّ فيما يتعلق بمعرفة معادن الناس وعراقة النسب، أي ستندثر المعايير التي يُعرَف بها نسب أقوام شتى. وبالفعل، نرى أن الإحساس بعراقة النسب قد انمحى في هذا العصر تماما. لقد انمحى في أوروبا نهائيا، وأخذ ينمحي عندنا بالتدريج، فبدأ نفوذ ذوي النسب العريق في الانقراض.

إذًا، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أنه في ذلك العصر ستتلاشى موازين عراقة الأنساب عن الدنيا. وبالفعل نرى الجهود تبذل للنهوض بالأقوام المنبوذة، وليس ذلك إلا سعيًا للقضاء على أي اعتبار لعراقة النسب.

ثالثا: ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ضعف تأثير العلماء والأمراء في ذلك العصر. إن زمام قيادة القوم يكون في أيدي هاتين الفئتين حيث يقودهم الأمراء سياسيا والعلماء دينيا. والله تعالى يخبرنا هنا أن علاقة الجماهير ستضعف مع العلماء والأمراء كليهما، سيضعف تأثير الأمراء على ذوي الميول المادية، وتأثير العلماء على ذوي الميول الدينية. وبتعبير آخر، يفقد العلماء والأمراء السيطرة على الناس.

رابعًا: ومن معاني انكدار النجوم تناثُرُها، ومن معاني الآية المذكورة من قبل ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ خسوفُ الشمس والقمر، وإذا جمعنا بين الآيتين، فسيُعتبر قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ إشارةً إلى سقوط الشهب بكثرة في زمن المسيح الموعود عليه السلام. وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بجلاء، حيث سقطت الشهب في ٢٨ نوفمبر ١٨٨٥ في كل أطراف الفضاء بكثرة كأنّما هناك ألعاب نارية. وقد نشرت الجرائد في أوروبا وأمريكا وآسيا هذا الخبر على نطاق واسع مستغربين هذه الظاهرةَ التي اعتبروها أُعجوبة من العجائب✪.

✪ الواقع أن المراد من يوم ٢٨ نوفمبر ١٨٨٥م هو الليلةُ التي سبقت ذلك اليوم كما صرح المسيح الموعود عليه السلام حيث قال ما تعريبه: "ومن تلك الآيات التي ظهرت بعد أن تلقيتُ الإلهامات المشار إليها أنه في ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٥، أقصد الليلة التي سبقت اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٨٥، كان في السماء مشهد غريب لسقوط الشهب بكثرة لم أر له مثيلاً في حياتي. ("آئينه كمالات إسلام"، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ١١٥). وهذا ما أكده العلماء أيضًا حيث قالوا إن هذه الظاهرة المذهلة وقعت في ليلة ٢٧ من نوفمبر ١٨٨٥م.

انظر The Guinness Book of Astronomy, 5th Edition P. 132 . والمعروف أن اليوم في التقويم الشمسي يبدأ بالنهار لا بالليل. (المترجم)

إذًا، فلو اعتبرنا الشمس مجازية أي روحانية، فنعتبر النجوم أيضًا روحانية أيضًا. وإذا اعتبرنا الشمس مادية، فيراد بانكدار النجوم سقوط الشهب بكثرة. إذًا، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ :

١-أي ستسقط الشهب بكثرة كالمطر

٢- لن يتبع الناس الصحابة في صلاحهم وورعهم، وتصبح علومهم متروكة مهجورة.

٣- سيفقد ذوو النسب العريق نفوذهم.

٤- سيفقد الأمراء تأثيرهم على العامة.

٥- سيفقد علماء الدين تأثيرهم على الناس.

وكل هذه العلامات قد تحققت في هذا العصر.

وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٤﴾

الجبل: كلُّ وَتَدٍ في الأرض؛ عظُم وطالَ؛ عكسُ الساحل؛ سيدُ القوم عالمهم، تقول العرب: فلانٌ جبلُ قومه: أي سيدهم وعالمهم. (الأقرب)

سُيِّرَت: سيَّره: جعَله سائرًا. وسيَّر الجُلَّ عن ظهر الدابة: ألقاه. وسيَّر المثلَ: جعله يسير بين الناس. وسيَّره من بلده: أخرجه وأجلاه. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: عندما تُسيّر الجبال من مكانها؛ عندما يطرد العلماء والزعماء من بلادهم ويُنفوْن.

التفسير: أولاً: من معاني هذه الآية أن الجبال سوف تُسيَّر من مكانها، أي تُنسَف الجبال لشقّ الطرق من خلالها. وسيُعتبر عندها قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ كقولنا: يجري الميزاب، مع أنه لا يجري، بل الماء هو الذي يجري فيه. فهذا إشارة إلى نسف الجبال بالديناميت من مكانها لشق الطرق خلالها. وأكثر الشواهد على صدق هذه النبوءة في الدنيا اليوم؛ حيث ينسفون الجبال بالديناميت ويقطعون الجبال ويشقون الطرق الواسعة بكثرة، فيمكن أن ترى ذلك في جبال دهوزي

وشِمْله ومري وكشمير ومنصوري وغيرها. لقد نسب الله تعالى هنا السير إلى الجبال والواقع أن الناس هم الذين يسيرون، فالمراد أن الجبال ستُشقّ فيها الطرق الجيدة بكثرة لسير الناس فيها. لقد نسفت الجبال في هذا العصر بكثرة لا حد لها، وقلّما يوجد جبل لم تُشقّ عبره الطرق، حيث يضعون فيه ديناميت وينسفونه نسفا، ثم يشقّون الطريق. كما تُنسَف الجبال بكثرة خلال الحروب الحالية، فإذا كان العدو رابضا على قمة جبل، يضعون تحته بارودا وينسفونه. في الماضي لم يكن البارود متوفرا بهذه الكمية حتى تنسف الجبال. فهذه الآية تنبئ ضمنيًا عن كثرة البارود أيضا، إذ لا تُشق الطرق في الجبال من دون الديناميت.

كذلك قد اختُرعت كثير من الآلات الثقيلة لمهد الطرق؛ إذًا فهذه الآية إشارة إلى اختراع هذه الآلات أيضًا.

ثانيًا: ومن معاني الجبل سيد القوم، وعليه فقوله تعالى﴿وإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ سيعني أن علماء القوم وساداتهم سيُطرَدون من البلاد. وهذا أيضًا لم يتحقق في الماضي كما تحقق اليوم، فقد طُرد من روسيا كلها علماء الدين المؤْثرين الدين على السياسة، أما تركيا فقد اكتسحت الدين اكتساحًا؛ فقد أُمر المسلمون فيها أن مَن أراد منهم الصلاة فليصلّها بالتركية، ومن أراد قراءة القرآن فليقرأه بالتركية، وإلا سيُنفى من البلاد أو يُسجن.

سنتحدث عن الآيات التالية لاحقا، ولكن أمعنوا النظر في هذه الآيات الثلاث، وفكروا هل اجتمعت هذه الأمور من قبل؟ لو جمعنا تاريخ العالم كله فلن نجد فيه حتى عُشْرَ هذه العلامات في أي زمن. إن خسوف الشمس والقمر وسقوط الشهب بكثرة وتلاشي الروايات البطولية القومية علاماتٌ بينة لم تظهر بهذا الشكل في أي عصر مضى. لو جمعنا تاريخ الأمم لستة آلاف سنة مثلاً، بل حتى لمائة ألف سنة، لن نجد عصرًا تم القضاء فيه على الروايات البطولية للشعوب المقهورة كما حصل اليوم. فإن كل مَلِكٍ أوروبي شارب خمر جاهل ظالم يُعرض على الناس بصورة جميلة، وكل مَلِكٍ مسلم طيب يُعرَض عليهم بصورة مُشوَّهة مكروهة. ولما كان أهل الغرب هم الذين يملكون نظام التعليم فإن المسلمين أيضا قد بدءوا يتبنّوْن

آراءهم المشوهة هذه. في الماضي تجد زيدًا قد نسي منجزات أسلافه، أو تجد عمرًا تغافل عن محاسن آبائه، ولكنك لن تجد الأمة بأسرها نسيت رواياتها البطولية، بل أخذ أبناؤها يروْن محاسن أسلافهم عيوبًا ونقائص. فمثلاً نجد اليوم مئات الآلاف من المسلمين يرمون العديد من سلاطين المسلمين بالسوء والفسق، وفي الوقت نفسه يثنون على ملوك غربيين كانوا أسوأ وأخبث من هؤلاء الملوك المسلمين. يقولون كان السلطان محمود الغزنوي موصومًا بعيب كذا وكذا، ولكنهم لا يفكرون أن ملوك الأمم الأخرى الذين يثنون عليهم كانوا أشد خبثًا وسوءًا من هذا السلطان المسلم. إذا كان بعض سلاطين المسلمين يشرب الخمر فكان يتعاطاه سرًا، أما الملوك الآخرون الذين يمدحهم هؤلاء الطاعنون فكانوا يشربون جهارا. إذا كان شرب الخمر عيبا، فهو عيب عند الإسلام، لا عند المسيحية، فكان على هؤلاء الغربيين المسيحيين أن يفرحوا أن سلطانا مسلمًا وقع في شرب الخمر مثلهم، ولكنهم يطعنون فيه بسبب شربه الخمر، وليس غرضهم من ذكر ذلك إلا تنفير المسلمين من سلاطينهم وتحقيرهم في أعينهم. ما الذي يضر هؤلاء الغربيين إذا شرب سلطان مسلم الخمرَ أم لم يشرب؟ المفروض أن ينحصر تعليقهم على سياستهم لبلادهم، فيخبروا الناس كيف كان هؤلاء يديرون الحكم والنظام.

لقد كنت في زيارة لمدينة لاهور في الأيام الأخيرة، فسألني البعض مشيرًا إلى بعض ما فعله السلطان محمود الغزنوي وقال هل كانت تصرفاته هذه بحسب تعاليم الإسلام أم خلافها؟ فقلت: إن هذه الأمور تتعلق بالدين، ومع ذلك تريد الطعن بها في سلطان مسلم لتثبت أنه كان حاكمًا سيئا وأن فلانا من الملوك الأوربيين كان حاكمًا جيدًا، والواقع أن ذلك الملك الأوروبي كان موصومًا بآلاف العيوب؛ فأسلوبك هذا ليس سليمًا، وإنما عليك أن تقارن أخلاق السلطان محمود الغزنوي مع أخلاق الملوك المعاصرين له. فما دام الغزنوي أسمى أخلاقًا من ملوك عصره، فلا بد أن يُعَدّ ملكًا عظيمًا من الناحية التاريخية رغم بعض عيوبه، ولا تصحّ مقارنته بملوك هذا العصر. فمثلاً لقد قام أديسون بمخترعات كثيرة، والمخترعات التي تمّتْ بعده أكثر منها بكثير، ولكن هذا لا ينال من أديسون شيئًا، ذلك لأن ما قام به

كان عملا رائعا جدا جدا في عصره. كذلك ما دام محمود الغزنوي أحسن أخلاقا من الملوك المعاصرين له، فلا بد من الثناء عليه، وينبغي فحص أعماله من هذه الزاوية نفسها.

باختصار، إن مثال انكدار الروايات البطولية للأمة واضحٌ في هذا العصر بحيث لا نجد له مثيلا في الماضي. كذلك إن ضعف نفوذ العلماء والأمراء واضح بحيث لم يسبق له نظير في الماضي؛ لقد نُفي العلماء المتمسكون بالدين من روسيا ومن تركيا ومن ألمانيا ومن إيطاليا، كما تعرضوا إلى معاملة مماثلة في بعض البلدان الأخرى، وأُلقي بهم من مقام العز إلى الحضيض كما يلقى الجُلُّ عن ظهر الدابة.

باختصار، لو جمعنا العلامات المذكورة هنا مع ما ذُكر في الآيات التالية فلن نجدها قد اجتمعتْ في أي عصر خلا، بل لو نشرنا إعلانًا بأن من قدر على إثبات هذه الأمور في أي عصر من العصور الخالية فله جائزة مائة ألف أو مائتي ألف، فلن يقدر أحد على قبول هذا التحدي. ضعْ هذه الأمارات أمام أي مؤرخ ثم اسأله: أي زمن تنطبق عليه هذه الأمارات؟ لقال لك فورًا: إنها علامات هذا العصر؛ إذ لم تقع من قبل قط. وكل مَن يقرأ هذه الآيات سيشير إلى هذا العصر فقط لا إلى أي عصر آخر. وهذا ما أخبر به النبي ﷺ أن هذه السور ترسم يومًا كالقيامة رسمًا واضحًا بحيث إن من أراد أن يرى مشهد يوم القيامة رأي عين فليقرأْ هذه السور.

وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

العِشار: جمعُ العُشَراء، وهي من النُوق التي مضى لحملها عشرةُ أشهر أو ثمانية. وقيل العِشار اسم يقع على النوق حتى ينتج بعضها وبعضها يُنتظر نتاجها. (الأقرب)

عُطِّلت: عَطَّل الإبلَ: خلاّها بلا راعٍ؛ وكُلُّ ما تُرِكَ ضائعًا فقد عُطِّلَ. (الأقرب)

التفسير: لقد نزل القرآن الكريم في الجزيرة العربية، ولذلك قُدِّمت فيه حاجات العرب ومشاعرهم على أي شيء آخر، لكي يفهموا القرآن جيدا، ثم ينشروه في العالم. إن تعبيرات أول المخاطَبين بوحي الله تعالى ومشاعرَهم تُقدَّم على تعبيرات الآخرين ومشاعرهم، لأنهم كيف ينشرون الوحي بين الناس إذا لم يفهموه؟

كانت الجِمال رَكوب العرب وغذاءهم؛ حيث كانوا يسافرون عليها، ويشربون ألبانها ويأكلون لحومها كغذاء، فكانت الناقة عزيزةً عليهم وكانوا شديدي الحرص عليها إذا كانت في شهرها العاشر من الحمل، أو كانت قد وَضَعت حملها؛ إذ كانت الناقة الحامل تصلح للركوب، كما كان هنالك أمل في نتاجها الذي سينفع كمركب وكغذاء أيضًا. علمًا أن لحم ولد الناقة لذيذ جدًّا مثل لحم حَمَلِ الضأن، فإن تجارة سكان "بيشاور" مثلاً تقوم على لحم حُمْلان الضأن إلى حد كبير، حيث يذبحون الحَمَل وهو في شهره الثاني، فيأتي الناس من أماكن بعيدة لأكل لحمه اللذيذ جدا.

باختصار، كانت الناقة العُشَراء عزيزة على العرب للبنها وولدها، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.. أي سيأتي زمان تُترك فيه هذه النياق معطلةً.. أي ١- سوف تُخترع مراكب جديدة تصبح بها النوق في شهرها العاشر من الحمل أو التي قد وضعت ولدها عاطلةً. ٢- وسوف تُخترع من المراكب السريعة ما يوصل شتى الأطعمة إلى بلاد العرب، فلن يعودوا بحاجة إلى ألبان النوق كغذائهم الأساسي، وهكذا ستفقد الناقة العشراء قيمتها المعهودة. وقد تحقق هذان الأمران في هذا العصر، حيث اختُرعت الباخرة والقطار والسيارة والطائرة، فأخذ عرب الجزيرة يسافرون بها بدلاً من ركوب الجمال. عندما بدأ السفر بالسيارات في الجزيرة العربية ثار البدو بحجة أن هذا سيضر بتجارتهم، ولكن ظل الناس يستعملون السيارات حتى انتهى عهد السفر بالجمال. والذين يذهبون اليوم إلى مكة إنما يسافرون بالسيارات.

كان المولوي ثناء الله الأمرتسري قد اعترض علينا مرة أن سكة الحديد لم تصل إلى مكة بعد. والحق أن لا فرق بين القطار والسيارة، لأن المقصود من هذه النبوءة أن

السفر على الجمال سيُصبح متروكًا لاختراع وسائل سفر جديدة فيفضّلها الناس على الجمال. إذًا فالسيارات قد قللت من أهمية السفر على الجمال تماما. القطار ينطلق بمواعيد محددة، أما السيارة فيمكن أن يسافر بها صاحبها في أي وقت شاء، لذلك حيثما تكون السيارات تصبح المراكب الأخرى معطلة تماما. إذًا فهذه النبوءة قد حققها الله تعالى بهذا الشكل أيضا، حيث تسير السيارات من جدة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة، و لم تعُد الجمال ذات أهمية.

كما تحقق الجزء الآخر من هذه النبوءة، أعني اختراع السفن والطائرات السريعة التي توصل صنوف الأطعمة والخضار إلى بلاد العرب. فالأمة التي كان طعامها الأساسي ألبان الجمال ولحومها، قد تيسَّر لها أنواع اللحوم والخضار والثمار، و لم تعدْ بحاجة إلى الاكتفاء بألبان الجمال ولحومها. إن لبن الناقة لا يُشرب للذته بل عند الضرورة. لقد شربته، فلم أستسِغْه حتى كدت أتقيّأ. لا شك أن الذي لا يجد غذاء آخر يشرب هذا الحليب، ولكن من يجد أنواع الأكل والشرب الأخرى فلماذا يشربه؟ كما أن لحم الجمل يكون صلبًا لا يُمضغ بسهولة. لا شك أن العرب كانوا يأكلونه، ولكنهم لو وجدوا لحم الجدي والحمل فلماذا يأكلون لحم الجمل؟ وإذا تيسرت لهم أنواع الخضار، فلماذا يرغبون في ألبان النوق؟ وهذا ما بينه الله تعالى هنا أنه ستُخترع شتى وسائل النقل والسفر السريعة التي ستوصل إليكم كل شيء إلى الجزيرة العربية، فلن يعود ركوب الجمل ولا حليب الناقة ولا لحم الحُوار ذا قيمة عندكم. لقد رأينا اليوم أن "البان"♦ يصل إلى الجزيرة العربية بالسفن والطائرات، وبدأ العرب يستعملونه فضلاً عن الهنود. وهناك مأكولات ومشروبات كثيرة لم تكن لتخطر ببال العرب، ولكنها تصلهم الآن بسهولة، فقلّت الحاجةُ جدًّا إلى حليب الإبل ولحمها ولا تزال تقلّ باضطراد، واستغنى العرب عن الإبل كأهل البلدان الأخرى. و لم يعد الحال كما كان من قبل، وسيتغير الوضع أكثر في المستقبل.

♦ "البان" اسم شجرة في الهند يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. *(المترجم)*

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

الوحوش: مفرده الوحش ومعناه: حيوان البر، أو ما لا يُستأنس من دوابّ البرّ. (الأقرب)

حُشرت: حشَر الناس حشرًا: جمَعهم. وحشَر السنانَ: دقَّقه ولطَّفه. وحشَر فلانًا: جلاه عن وطنه. وحشَر الجمعَ: أخرجه من مكان إلى آخر. وحُشرت الوحوش: ماتت وأُهلكت. (الأقرب)

التفسير: هذه نبوءة عظيمة أخرى وقد تحققت في هذا العصر. فمن معانيها:

١- سيأتي زمن تُحشَر فيه حيوانات البر. وبالفعل ترى كيف حُشرت وحوش البرّ في حدائق الحيوانات. هل سبق لذلك نظير في الأزمنة الخالية؟ ليس في الدنيا اليوم قطر ولا بلد ولا إقليم إلا وتوجد فيه حدائق الحيوانات الوحشية والدوابّ. ولعله لم يوجد في الماضي مكان واحد في العالم كله حُشرتْ فيه وحوش البر والبحر بهذا الشكل. فهناك تنافسٌ بين بلد وآخر وإقليم وآخر في حشرها بعدد أكبر.

وعلاوة على حدائق الحيوانات هناك متاحف يحتفظون فيها بجثث الحيوانات الميتة المحنَّطة، وذلك بحشو جلودها بمختلف المواد، ليشاهدها الناس ويزدادوا بها معرفة.

ثم هناك معاهد للبحوث العلمية في علم الأحياء، حيث يحتفظون بهياكل الحيوانات المنقرضة، ويجرون عليها الفحوص لمعرفة عمرها وما مضى عليها من الزمن، ومراحل تطورها.

إذًا، فقد تحققت هذه النبوءة بإنشاء حدائق الحيوانات والمتاحف ومراكز البحث في علم الأحياء، وقد حشرت هذه الوحوش الحية أو الميتة حشرًا غير مسبوق.

٢-كما يمكن أن تكون الوحوش هنا مجازا، بمعنى الأناس الوحشيين؛ حيث تستعمل هذه الكلمة بهذا المعنى بكثرة،[٥] وفي لغتنا الأردية أيضًا يقولون: لا تُكلِّمْه، فإنه

[٥] يقال: هو مِن وحش الناس: أي أراذلهم. (المنجد)

وحشيٌ. أو يقال: هؤلاء القوم من الوحوش. وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ يعني أن الأقوام الوحشيين، أي الهمجيين وغير المتعلمين ولا المتحضرين، سيتم جمعُهم بالأمم المتحضرة نتيجة انتشار الحضارة وكثرة الطرق وسهولة المواصلات. فلو زرتَ منطقة "البار" في إقليم "البنجاب" لسمعتَ مرارًا أن هذه قرية جديدة، وتلك قريةُ "الهمجيين". والهمجي يعني الوحشي. وهذا يعني أن هذه الشعوب الهمجية أو الوحشية وغير المتحضرة التي كانت تعيش منعزلة قد اختلطت الآن بالشعوب المتحضرة تماما. وأهل الجبال كانوا يُعَدّون من الوحشيين في الماضي، أما اليوم فقد أُنشئت على كل جبل تقريبا متنـــزهات ومصايف يرتادها الأثرياء في أيام الصيف بكثرة، وهكذا تم اختلاط أهل الجبال بالأمم المتحضرة.

أتذكر أننا ذات مرة كنّا قادمين من قرية قريبة من مصيف (نور بور) الواقعة على بعد ١٥ ميلا من مدينة (بطانكوت)، وكان معنا المولوي يار محمد المحامي المرحوم، فوجدنا امرأة واقفة وسط الطريق، فلم نستطع أن نتقدم بالسيارة، وذهب المولوي يار محمد إليها وخاطبها قائلا: (مائي) -أي أيتها السيدة- تَنحّي قليلا عن الطريق حتى تمر سيارتنا. فأخذتْ في الصراخ والسباب وزعمت أنه قد أهانها. فاندهش المولوي وقال: كيف أهنتُك؟ فأخذتنا الحيرة وتساءلنا عما حصل، ولكنها ظلت تصرخ وتسبّ وتقول له: لماذا ناديتَ (مائي)؟ فتوسل إليها المولوي في الأخير قائلاً: سامحيني لوجه الله؛ فإني لم أُرد إهانتك، وإنما ناديتك بهذه الكلمة لأنها كلمة احترام عندنا. ولكنها ظلت تقول: كلا، بل إنك سمّيتَني زوجةً لأبيك. عندها أدركنا ماذا فهمتْ من كلمة (مائي)، ولماذا كانت تصرخ وتشتم.

وقبل فترة كنت عائدًا من مصيف (دلهوزي)، فعلمتُ أن سائق سيارتنا من سكان قرية (نور بور)، فحكيت له هذه الطريفة، فقال: هذا كان في القديم، أما اليوم فلا تتحرج نساء هذه المنطقة من هذه الكلمة؛ إذ كثر اختلاط أهل البنجاب بأهل منطقتنا، وبدأت نساؤنا يفهمن معنى هذه الكلمة. أما قبل أربعين عاما فإن "المولوي يار محمد" ظلّ يتوسل إلى تلك السيدة حوالي ثلث ساعة، وكانت تصرّ على قولها: كيف جعلتني زوجة أبيك؟

فالله تعالى قد أنبأ في قوله ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أنه سيأتي زمن سيُجمع فيه بين الأمم الوحشية أو المتخلفة والشعوب المتحضرة، وبتعبير آخر سوف يُعمَر كل شبر من الأرض، وتكون هناك صحوة بين الشعوب المتخلفة ويكثر التعليم بينهم. وبالفعل نرى أن سكان إفريقيا الذين كانوا يعيشون عراة في الماضي أخذوا يَفِدون إلى الغرب للدراسات العليا، ويرجعون حاملين شهادات الدكتوراه والماجستير. كان داعيتنا "المولوي عبد الرحيم نيِّر" يُرينا صور الأفارقة الذين كانوا يعيشون عراة قبل وصول دُعاتنا إليهم، ولكنهم بدءوا يلبسون الثياب الآن. فتربية الشعوب الوحشية كلها في الزمن الراهن أمرٌ لم يسبق له مثال. لو كان هناك أمرٌ واحد فيمكن أن يسميه المرء صدفة، ولكن كيف يمكن أن تُعتبر كل هذه العلامات المذكورة في القرآن في مكان واحد وعن عصر واحد صدفةً ؟

٣- وقد يراد بقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الأمم التي كانت تُعتبر وحشية زمن نزول القرآن حيث يُنهض بها فتنتشر في الدنيا، أي يصبح أهل أوروبا وأمريكا غالبين. ذلك أن أهل أوروبا كانوا يعيشون كالوحوش تمامًا في زمن النبي ﷺ، وكان معظمهم يعيشون شبهَ عراة كالأفارقة، بل لو نظرنا إلى صورهم قبل خمسة أو ستة قرون، وجدناهم لابسين جلودًا تصل إلى ركبهم، وحاملين في أيديهم القسيّ والنشّاب، وعلى رؤوسهم قبعة عجيبة. فمن معاني قوله تعالى﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أنه سيتمّ النهوض بالأمم التي كانت تُعتبر وحشية زمن نزول القرآن، فتتحد وتتقوى وتنتشر في الدنيا.

٤-ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الأمم غير المتدينة ستنال الحُكم، لأن الإنسي هو من عنده دين، والوحشي من لا دين له. فهذه نبوءة عن نيل الأمم الملحِدة الحُكمَ مثل روسيا وغيرها من الشعوب التي لا رغبة لديها في الدين.

٥- وقد يراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ نبوءة عن انتشار الأخلاق الذميمة، وضعف أهل الدين.

٦- ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الشعوب الوحشية ستُطرد من أراضيها، كما يحصل اليوم في إفريقيا. فلو ذهبتَ إلى كينيا أو أوغندا ستجد

المشهد نفسه. لقد وصل الإنجليز إلى تلك البلاد، فقالوا لأهلها: إما أن تعمروا ما تملكون من الأرض أو تخرجوا منها. وكان بعضهم يملك منطقة مساحتها ٦ أميال مربعة، فطرده الأوروبيون من أراضيه وضياعه واستولوا عليها. وتجد اليوم بعض الإنجليز في إفريقيا يملك مليونًا ونصف المليون من الفدادين، ولكنه لا يعمرها، إلا أنهم لما ذهبوا إلى تلك البلدان خيّروا أهلها بين إعمار أراضيهم والخروج منها. وكيف يمكن لشخص واحد إعمار هذه الأراضي كلها، وكانت النتيجة أن استولى الإنجليز على الأرض وطردوا منها أهلها. وهذا ما حدث في القارة الأمريكية أيضًا؛ كان الهنود الحمر يملكون أمريكا الشمالية والجنوبية كلها، ولكن الأوروبيين انتزعوا منهم أرضهم واستولوا عليها كلها.

٧- ومن معاني (حُشرتْ) أُهلكتْ، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أن الأمم الوحشية سُتباد بطرق شتّى. وبالفعل قد قتل الأوروبيون سكان تلك البلاد القدامى بأنواع التعذيب. لقد قرأت عن ولاية أنه لم يبقَ فيها الآن من سكانها القدامى إلا ثلاثة عشر فردا، وكانوا يعيشون فيها بمئات الآلاف من قبل. وكذلك لا يوجد لسكان أستراليا الأصليين أثر ولا خبر اليوم؛ وكانوا يعيشون بمئات الآلاف في الماضي. ذلك لأن الأوروبيين قد أبادوهم عن بكرة أبيهم بأنواع الآلام والتعذيب ومحوْا أثرهم.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

البحار: البحر: خلافُ البرّ؛ الماءُ المَلحُ؛ كلُّ نهر عظيم؛ كلُّ متوسِّع في شيء، فالرجل المتوسِّع في العلم بحرٌ، والفرسُ المتوسّع في جريه بحرٌ، وجمعُ البحر بُحورٌ أَبْحُرٌ وبِحار. (الأقرب)

سُجِّرتْ: سجّر الماءَ: فجّره، وسجَر التنورَ: ملأه بالحطب ليحميه، وفي القرآن: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.. قيل أي أُحميتْ بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدا. (الأقرب)

التفسير: تسجير الأنهار يمكن أن يكون بطريقين؛ أوّلهما: أن تُشقّ القنوات من نهر، أو يؤخذ ماء نهر آخر ويُصَبّ في آخر. والمراد أنه ستُشقّ القنوات من الأنهار بكثرة حتى تكاد تجفّ، أو سيؤتى بالمياه من نهر وتُصَبُّ في آخر لزيادة مائه. ونرى أن كِلا الأمرين قد تحقق اليوم.

ليس في بلادنا رواج للسفن، ولكنها تُستخدم في أوروبا بكثرة. إنهم يصلحون الأنهار عند مصبّها في البحر، ويسيِّرون السفن عبرها داخل البلاد، فيسهل النقل والمواصلات، فالثابت بالتجربة أن نقل البضائع بالقطار أكثر كلفة منه بالسفن حتى اليوم، ولذا نجد أهل الغرب يُكثِرون من استعمال السفن للتجارة. يصلحون الأنهار، فتصل سفنهم عبرها داخل البلاد لثلاثين بل أربعين بل مئة ميل في بعض الأماكن، وهكذا يجدون سهولة كبيرة في التجارة. هذا الأمر لا يوجد في بلادنا، ولكن له رواج كبير عندهم.

ثم إنهم يشقون القنوات من الأنهار، بل يأخذون ماء نهر إلى آخر، ليشقوا منه قنوات واسعة، وهذا هو تسجير البحار.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أن العلماء يُنـــزَع منهم العلم فيصبحون جهالا، إذ إن من معاني البحر الرجل العالم المتوسع في علمه.

وإذا كانت البحار هنا بمعنى الماء المِلح، أي بمعناها المعروف، فالمراد أن بعض البحار تُربَط بغيرها، كما رُبط البحر الأحمر ببحر الروم (المتوسط) بشق قناة السويس، ورُبط البحران الأمريكيان بشق قناة بنما.

وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

التفسير: هذه الآية تشير إلى سهولة المراسلة والسفر والاتصال، حيث أخبر الله تعالى أنه ستُخترع في الزمن الأخير مخترعات تقرّب الناسَ بعضهم من بعض. وأكبر ما يدل على صدق هذه النبوءة القرآنية في الزمن الراهن هو القطار. فتجد في عربة واحدة للقطار أحد الصينيين جالسًا في مقعد وإنجليزيا في آخر وبنغاليا في ثالث وأفغانيا في مقعد رابع وبنجابيا في خامس. فعربة واحد تجمع أشخاصًا ينتمون إلى مناطق مختلفة ويتكلمون لغات شتى. في الماضي كان الناس يرون أهل البلاد الأجنبية والمناطق الأخرى بصعوبة، أما اليوم فقد كثرت وسائل المواصلات وسهل السفر بحيث تجد الأمريكان يمشون في الهند والهنود في أمريكا.

ثم إن أجهزة البرق والبريد والمذياع قد حققت نبوءة تزويج النفوس هذه بجلاء حيث نسمع بالمذياع خُطب الصينيين حينًا وخطب اليابانيين حينا آخر، وتصل إلى أسماعنا -ونحن جالسون في بيوتنا- أصوات الألمان تارة وأحاديث الإنجليز تارة أخرى. إذًا فإننا نكون جالسين مع صيني في مكان مرة، ومع ياباني في مكان مرة أخرى، ومع إنجليزي حينًا، ومع ألماني حينًا آخر.

كما أن قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إشارةٌ إلى انتشار وجهة نظر واحدة في العلوم. وبالفعل قد سادت اليوم العلوم الغربية العالَمَ كله بحيث أصبح اتحاد النفوس وارتباطها فيما بينها سهلاً جدا. لقد غزت هذه العلوم العالَمَ حتى أحاطت بأهل الدنيا كلها، خاصة الفلسفة الأوروبية التي أخذت تصوغ عقول الناس بطابع خاص. فعندما يفكر الصيني أو الياباني أو العربي أو الأفغاني اليوم فإنما يفكر بأسلوب أهل الغرب رغم اختلاف شعوبهم وألسنتهم، وليس ذلك إلا لأن الفلسفة والحضارة الغربية قد غزت عقول الجميع، وتم تزويج أفراد شتى الأمم علميا.

وقد يراد بقوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ كثرة التزاوج بين أفراد شتى الشعوب والأمم. وبالفعل تجد الإفريقيات تزوجن من الإنجليز والفرنسيين، وتزوجت الإنجليزيات رجالا من الشعوب الأخرى. لو زرت فرنسا مثلاً، وجدت الفرنسي

يمشي واضعًا يده في يد زوجته الإفريقية دون أي إحساس أنه فرنسي وزوجته إفريقية. كما بدأت الدول تُصدر قرارات بجواز التزاوج بين أهل الأديان المختلفة حتى لا يبقى هناك عائق في هذا الصدد. في الماضي كان الناس يترددون كثيرا في الزواج من الأجانب، أما اليوم فيضغطون على الحكومات لإصدار القرارات للزواج بين أهل الأديان الأخرى لإزالة أي عائق بهذا الشأن. عندما كنت مقيما في مدينة لاهور من أجل علاج زوجتي أم طاهر رضي الله عنها، زارني أحد الزعماء الكبار مع زوجته، فأخبرتني زوجته أنها وُلدت عند أبوين مسلميْن، وأنهن ثلاث أخوات، وقد تزوجت إحداهن بمسلم، والأخريان بهندوسيين.

ومرة حصلت ضجة كبيرة في مدينة بيشاور حين تزوجت بنت "الدكتور خان" من طيّار ينتمي إلى طائفة "السيخ".

باختصار، لقد شاعت الزيجات بكثرة بين أهل الأديان والشعوب المختلفة، وهذا دليل بينٌ على صدق هذه النبوءة القرآنية.

كما تشير هذه النبوءة إلى اتحاد نفوس شتى وتأسيس جمعيات ونقابات وأحزاب مختلفة. وبالفعل نشاهد في الدنيا أحزابا كثيرة مثل حزب العمال والحزب الفاشي والحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي، حيث يجتمع أصحاب فكر واحد ويشكّلون أحزابًا خاصة بهم، فيكافح العُمّال والصُنّاع والمعلّمون والتجّار من أجل حقوقهم، ويتنافسون حتى لا يتأخروا عن غيرهم في سباق الرقي والتقدم.

إن هذه العلامات كلها تتعلق بهذا العصر، وقد حقّقها الله تعالى في هذا العصر نفسه؛ إذ من المحال أن تُقدَّم من تاريخ العالم فترة تحققت فيها هذه العلامات. فكل إنسان نعرض عليه هذه العلامات سيقول لنا حتمًا إنها تشير إلى زمننا هذا دون غيره. ورد في الروايات أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يخطب مرة يوم الجمعة فقرأ قول الله تعالى ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وقال: "تزوّجُها أن تؤلّف كل شيعة إلى شيعتهم." (رواه ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير، ابن كثير).. أي أن أهل مهنة واحدة سيشكّلون جمعيات ونقابات.

إذًا، فقد تحققت هذه النبوءة بجلاء كما تدل عليه أحوال العصر الحاضر.

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الموءودة: وَأَدَ بنْتَه يئِدها وَأْدًا: دفَنها في القبر وهي حية. وعبارةُ "الأساس" (للزمخشري): "أثقلَها بالتراب"، فهي وَئيدٌ ووئيدة ومَوءودة. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ يعني أنه سوف يُسأل عن البنت التي كانت تُدفن حيةً. ولكن المفسرين يقولون أن الموءودة نفسها ستُسأل، لأن في توجيه السؤال إلى الموءودة تبكيتًا أكبر، لأنها ستُطالَب بالإدلاء بشهادتها (الكشاف). ولكني أرى أن هذا المعنى غير صحيح وخلاف للأسلوب القرآني المعروف، إذ يتضح من القرآن أن السؤال يوجَّه إلى الظالم لا إلى المظلوم. يقول الله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٤).. أي أن الله تعالى لا يُسأل عما يفعل، بل الناس هم الذين يُسألون عن أعمالهم. وقال تعالى ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب:٩)، وقال تعالى ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت:١٤)، وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(الزخرف:٢٠).

فكل هذه الآيات تكشف أن السؤال يوجه دائمًا إلى المجرم لا إلى الضحية، إلا في مكان واحد وهو قول الله تعالى للمسيح بن مريم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(المائدة:١١٧). والسبب في توجيه السؤال الى المسيح عليه السلام هو أن النصارى قالوا: إن المسيح هو الذي علمهم هذا التعليم، فإفحامًا للنصارى وإبطالاً لشبهاتهم كان توجيه هذا السؤال إلى المسيح ضروريا. ولكن ليس الأمر هكذا في قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾. فمتى قالت الموءودة أن يدفنوها حيّة؟ لو كان هناك ادعاء من الكفار أن الموءودة هي التي قالت لهم بدفنها حية، لجاز سؤالها، ولقال الوائد: لماذا تسألونني هذا السؤال، بل اسألوا الموءودة نفسها، لأنها هي

مَن قالت ادفنوني حيّةً. وحيث إنه ليس هنالك أي ادعاء للكفار بالنسبة للموءودة فكيف يوجه إليها السؤال؟

وعندي أن مفهوم الآية كالآتي: وإذا الموءودة سُئل عنها. لقد دُفنت ظلمًا بغير حق، فحين يُسأل وائدها عن وأدها تثبت إدانته. لا شك أن المؤمن أيضا يحاسَب، والكافر كذلك، ولكن هناك فرقٌ بين حسابهما، وهو أن حساب المؤمن يسير سهل لقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(الانشقاق:٩).. أي أنه سيُسأل أسئلة بسيطة ثم يُخلّى سبيله، ولكن حساب الكافر يكون شديدا. ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "مَن نوقش الحساب عُذّبَ". (البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب). والواقع أن المجرم لا يُسأل بشدة إلا ليعاقَب بعد الحساب، أما المؤمن فيريد الله أن يعطيه نصيبًا من نعمه وجزائه، فلذلك سيُسأل عن أعماله الحسنة ويقال: هل فعلتَ كذا؟ وعندما يعترف بها يُدخله الله الجنة. فثبت أن الغرض من حساب الكافر إهانته وإذلاله، ولكن الغرض من حساب المؤمن هو كشف أروع أعماله على الناس، ليعرف الناس مدى روعة أعماله الحسنة. لهذا السبب يقول الله تعالى هنا يومئذ يُسأل المجرمون عن الموءودة سؤالاً شديدا، ويقال لهم: بأي ذنب دفنتموها حية؟

لقد ناقش المفسرون هنا أمرًا ضمنيًّا لا أهمية له من الناحية العقائدية، كما أنه ليس ذا نفع كبير في هذه الدنيا، لأن الأمر يتعلق بالآخرة، غير أنه موضوع مهم جدًّا من الناحية النظرية.

قال الزمخشري إن قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ دليل على أن أولاد المشركين لا يعذَّبون في الآخرة، لأن الموءودة غير مذنبة عند الله تعالى، وإلا لم يقل: بأي ذنب قُتلت. (الكشاف)

وقد خاض المفسرون فيما إذا كان استنتاج الزمخشري صائبًا أم خطأً، وما إذا كانت هذه القضية صحيحة أم باطلة. والحق أن الزمخشري قد اتبع ابنَ عباس في استنتاجه من هذه الآية وقال إن أولاد المشركين أبرياء وأنهم سيدخلون الجنة. فقد ورد في الروايات أنه قيل لابن عباس ﷺ يقول البعض إن ذراري المشركين يدخلون الجحيم، فقال: لقد كذب هؤلاء، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾.

ولكن صاحب روح المعاني يقول إن هذا الأثر ضعيف.

فترى أن ابن عباس أيضا قال بهذا، ولكنه لم يذكر وجه استدلاله، وإنما ذكر الآية فقط. أما الزمخشري فقد اعتبر قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ دليلاً على براءة أولاد الكافرين ونجاتهم من النار، ولكن استدلاله من هذه الآية خطأ، إذ لا يعني قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ أن ذراري الكافرين سيدخلون الجنة؛ ذلك لأن عدم ثبوت إدانة شخص في قضية ما لا يتضمن براءته في القضايا كلها؛ إذ يمكن أن يكون قد ارتكب جريمة أخرى. لا شك أن استدلال الزمخشري صحيح بشأن البنات الموءودات، ولكنه ليس صحيحا على إطلاقه، لأن عدم ثبوت جريمة ضد شخص لا يعني بالضرورة براءته من أية جريمة أخرى.

إلا أن هناك أمرًا واحدًا يقوّي رأي الزمخشري وهو أن قوله تعالى ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ يتعلق بطفل غير بالغ، وحيث إن الطفل الذي لم يبلغ أشده غير مكلف بالشرع، فلا يمكن أن نقول بأنه إذا لم يكن قد ارتكب هذه المعصية فربما ارتكب غيرها.

وأبين الآن بعض الحلقات الأخرى من سلسلة هذا الموضوع، ثم في الأخير سأزيد وجهة نظري وضوحًا.

هناك اختلاف كبير بين العلماء فيما يتعلق بأولاد المشركين، أهُمْ من أهل الجنة أم من أهل النار؟ وقد نقل البعض أحاديث وآثارا بهذا الصدد، فمثلا روى الإمام أحمد بن حنبل عن سلمة بن يزيد الجعفي أن رسول الله ﷺ قال: الوائدة والموءودة في النار، إلا أن تدرك الوائدةُ الإسلامَ فيعفو الله تعالى عنها. (روح المعاني، وابن كثير). وقد روى النسائي هذا الحديث عن داود بن هندية. وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود: الوائدة والموءودة في النار (ابن كثير). وعن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: "خلَقهم الله – حين خلقهم – وهو يعلم بما كانوا عاملين." (النسائي وأبو داود، كتاب الجنائز)

ولتأييد موقفهم ينقلون رواية عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلت يا رسول الله، ذراري المؤمنين؟ فقال: هم مِن آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله تعالى أعلم بما

كانوا عاملين. قلت: يا رسول الله، فذراري المشركين؟ فقال: من آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين. (أبو داود، كتاب الجنائز)

فبالجمع بين هذه الرواية والحديث السابق يستدل هؤلاء أن أولاد المشركين سيدخلون النار لأنهم سيكونون مشركين في المستقبل في علم الله تعالى.

كما أن هناك رواية عن خديجة – رضي الله عنها – أنها سألت رسول الله ﷺ عن ولدينِ ماتا لها في الجاهلية، فقال ﷺ: هما في النار. (مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود)

هذه هي الأحاديث والآثار التي يُستدل بها على دخول أولاد المشركين النار.

أما أولاد المسلمين فيقول الإمام النووي: "أجمعَ مَن يُعتدّ به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفًا." (المنهاج شرح النووي لمسلم، كتاب القدر)

ولكن البعض توقف في هذا الشأن لحديث عائشة – رضي الله عنها – بأن صبيًا أنصاريًا تُوفي، فقالت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءًا و لم يدرك. فقال النبي ﷺ: أو غير ذلك. يا عائشة، إن الله تعالى خلَق للجنة أهلاً.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. (مسلم، كتاب القدر)

وقد أجاب عليه القائلون بدخول أولاد المؤمنين في الجنة بقولهم: لعل رسول الله ﷺ نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع. ويُحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة؛ فلمّا علِم الحقيقة قال: "ما من مسلمٍ يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ إلا أدخلَه الله الجنةَ بفضل رحمته إياهم" (روح المعاني، والنسائي، كتاب الجنائز، باب من يتوفى له ثلاثة). فهذا الحديث يصرح في رأيهم أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة، لأن النبي ﷺ نهى عائشة عن أن تسمي هذا الوليد عصفورًا من عصافير الجنة قبل انكشاف الحقيقة.

أما أولاد الكفار والمشركين، ففيهم ثلاثة مذاهب؛ فقال الأكثرون: هم في النار تبعًا لآبائهم لحديث سُئل فيه النبي ﷺ عن أولاد المشركين الذين يموتون في صغرهم فقال

ﷺ: "الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين". وتوقفت طائفة في هذا الشأن قائلة: كيف نعلم هذا وهو مما يتعلق بيوم القيامة، فلا نتدخل فيه. وقالت الثالثة: إنهم من أهل الجنة، ويستدلون بأدلة أكبرها عندهم حديث أن رسول الله ﷺ رأى في المعراج إبراهيم عليه السلام جالسًا تحت شجرة كبيرة مع وِلدانٍ يلعب معهم. فقيل: يا رسول الله، هل أولاد المشركين بين هؤلاء الوِلدان أيضا؟ قال ﷺ: نعم، وأولاد المشركين... أي حيث إن العذاب لا يترل إلا بعد بعثة رسول، والرسول لا يبعث إلى الأولاد كونهم غير مكلفين، فثبت أن أولاد المشركين لن يُعذَّبوا. (البخاري: كتاب التعبير، وروح المعاني).

ومن أدلتهم أيضًا: قول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾(الإسراء:١٦).

وهناك مذاهب أخرى أيضًا منها: أن هؤلاء الأولاد سيكونون في عالم البرزخ بين الجنة والنار. ومنها أنهم سيُختبرون يوم القيامة، فيدخلون الجنة أو النار بحسب نتيجة هذا الاختبار. وطريقته أنه سيقال لهم: ادخلوا النار، فمن رضي بدخولها، اعتُبر مؤمنًا وأُرسل الى الجنة، ومن رفض دخول النار، اعتُبر كافرًا وأُلقي في النار. ويقول أصحاب هذا الرأي عن قول الرسول ﷺ: "والله أعلم بما كانوا عاملين" أنها كلمات مبهمة لا تذكر النتيجة النهائية؛ إذ اكتفى النبي ﷺ بقوله: الله أعلم بما كانوا فاعلين إنْ بلغتْهم الدعوة وماذا سيكون مصيرهم. فهو ﷺ لم يصرح هنا بمصيرهم، بل يبدو أنه أراد أنهم لو أُتيحت لهم الفرصة، فالله أعلم بما سيكون مصيرهم. وقد رجّح الإمام ابن تيمية هذا التأويل. (روح المعاني)

وهذا الرأي تدعمه تلك الأحاديث التي تقول: إن الله تعالى سيبعث في الآخرة نبيًا لاختبار المجنون والمعتوه والشيخ الهرم الذي لا يعي شيئًا. (مسند أحمد، حديث الأسود بن سريع✪)

✪ نص الحديث: عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ. فَأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّي لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ

وقد رجّح السيوطي هذا الرأي، غير أنه أضاف أن أولاد المشركين سيُحشرون بلا شك، ولكنهم سيصيرون ترابًا كالحيوانات الأخرى لكونهم غير مكلفين. وقد اضطر لهذا الاستدلال بسبب قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾، إذ لا يمكن هذا السؤال إلا بعد أن تُحشر الموءودة. وهذا يماثل ما ذكره حديث بأن شاة نطحتْ شاة أخرى في الدنيا ستُحشر يوم القيامة فيقال للنطيحة انطحي الناطحةَ (مسلم، كتاب البر). إذًا قد اضطر السيوطي إلى القول بحشر الأولاد بسبب هذه الآية، ولكنه يقول لأن الأولاد لا يستحقون الجنة نتيجة عمل إذ لم يعملوا شيئًا، فلذلك يحوَّلون ترابًا بعد أن يجيبوا على هذه الأسئلة، مثل الحيوانات الأخرى التي ستصير إلى الفناء بعد أن يؤدي بعضها حقوق بعض.

وقد مال الإمام أحمد السرهندي – رحمه الله – أيضا إلى رأي الإمام السيوطي، وقال إن الأولاد سيحشرون، ولكنهم سيفنون مرة أخرى. (روح المعاني)

والقائلون بدخول الأولاد في الجنة قد ناقشوا سؤالا آخر وهو: إن هؤلاء الأولاد لا عمل لهم، ويدخل المرء الجنة عن استحقاق أي نتيجة عمل، فكيف يدخلونها إذًا؟ فأجاب بعضهم أنه فضل الله تعالى يعطيه من يشاء ولا يحق لأحد أن يتدخل فيه. وقال البعض الآخر: سيكون هؤلاء الأولاد في الجنة كالخدم وسيفرح آباؤهم برؤيتهم، فلا يدخلون الجنة عن استحقاق، وإنما يكونون هناك من أجل خدمة الآخرين. (روح المعاني)

وهناك رواية أخرى آخرُ راوٍ فيها امرأةٌ، وهي عمّة الخنساء، قالت: قلت يا رسول الله من في الجنة؟ قال: النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة. (مسند أحمد). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن الحسن رواية مرسلة، وهي: "قيل

مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ. فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا. قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيٌّ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَ هَذَا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا". (المترجم)

يا رسول الله، مَن في الجنة؟ قال: الموءودة في الجنة" (ابن كثير). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن ابن عباس: "أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾". (ابن كثير)

هذه هي الآراء القديمة التي نجدها في كتب الحديث وكتب العلماء السابقين فيما يتعلق بأولاد المؤمنين والمشركين، والظاهر منها أن غالبيتهم متفقون على دخول أولاد المؤمنين في الجنة. هناك حديثان فقط يجعلان هذه المسألة موضع شبهة إذا كانا صحيحيْن؛ أحدهما: ما نُسب إلى خديجة – رضي الله عنها – أنها سألت رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال ﷺ: هما في النار. لو كان أولاد المسلمين سيدخلون الجنة حتمًا، فلماذا قال النبي ﷺ عن ولدَي خديجة أنهما في النار؟ والحديث الآخر أن عائشة – رضي الله عنها– لما قالت عن ولد أنصاري تُوفيَ: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، قال النبي ﷺ: أو غير ذلك، لعله يكون من أهل النار. ثم دلل ﷺ على ذلك بقوله: إن الله تعالى خلق للجنة أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلَق للنار أهلا.. خلَقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. (مسلم). فكيف يمكننا الجزم أن أولاد المؤمنين من أهل الجنة أو من أهل النار؟

لقد ذكرتُ من قبل أن المحدثين يقولون عن قول النبي ﷺ لعائشة إنما قاله قبل انكشاف الحقيقة عليه حيث غيّر عقيدته بعد انكشافها. ولكنهم يواجهون هنا مشكلة أخرى، إذ ورد في حديث آخر أن رسول الله ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام جالسا في الجنة مع أطفال، وكان بينهم أولاد المشركين أيضا، وقد رأى ذلك في واقعة المعراج الذي وقع في السنة الخامسة للبعثة. وهذا يعني أن الحقيقة كانت قد انكشفت على النبي ﷺ قبل الهجرة بثماني سنوات، بينما تزوج النبي ﷺ عائشة بعد الهجرة بسنة. وهذا يعني أن الحقيقة انكشفت عليه ﷺ قبل زواجه بها بتسع سنوات، فكيف يمكن أن يقول ﷺ لعائشة قولاً يخالف هذا الانكشاف السابق؟ فلا جدوى من إجابة المحدثين هذه.

إذًا، إننا نجد التعارض في الأحاديث، فلا بد لنا من العودة الى القرآن الكريم، لنتدبره ونعرف تعاليمه بهذا الشأن، فهو وحي أنـــزله الله تعالى، ويمكننا قبوله

والأخذ به دونما تردد ولا خطر. لا جرم أن بعض هذه الأحاديث قوية الإسناد وقد وردت في الصحاح، ولكن يبدو أنه قد اختلط فيها الحابل بالنابل، أو أن بعضها موضوع من قبل الوضّاعين، فلا بد لنا من التوجه إلى القرآن الكريم لمعرفة حقيقة القضية.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(آل عمران:١٨٣). وحيث إن الله ليس بظالم، فكيف يمكن أن يُدخل الأولاد في النار من دون ذنب؟ إن عقاب من لم يرتكب جريمة، ثم هو غير مكلف بأحكام الشرع، لظلمٌ يقينا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء ١٦).. أي لا نعذب الناس من دون بعثة رسول. وقد استدل المحدثون أنفسهم بهذه الآية على نجاة الأولاد. فالله تعالى يعلن أنه لا يظلم العباد، ثم يعلن أنه لا يعذب الناس بدون إقامة الحجة عليهم ببعثة رسول، وهذا دليل على أن الأولاد لا يمكن أن يعذَّبوا؛ إذ لم يرتكبوا جريمة و لم يُبعَث إليهم رسول.

كذلك قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(طه ١٣٥). وقد تكرر المعنى نفسه في قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة ٢٠).

فقد أعلن الله هنا أن إقامة الحجة إنما يعني أن يُبعث نبي فيصدقه الناس أو يكذبوه، إذ يخبر تعالى هنا أننا قد بعثنا إليكم الأنبياء حتى لا تقولوا يوم القيامة لم يأتنا رسول. فرغم أنهم كانوا عقلاء إلا أن الله تعالى يقول لهم: لو لم نبعث إليكم الأنبياء لاعتبرناكم أبرياء. وحيث إن الكبار يُعَدّون أبرياء إذا لم يأتهم نبي، فإن تجريم الصغار واعتبارَهم من أهل النار – مع أنهم لا يفهمون حقيقة النبوّة وليسوا مكلفين بأحكام الشرع– لاعتقادٌ مخالف للقرآن الكريم يقينًا. إن القرآن يعلن أن العاقل لا يُعَدّ مجرمًا ما لم يُبعَث إليه نبي، فكيف، يا ترى، يُعَدُّ مجرمًا مَن ليس عنده عقل ولا

فهم أصلاً؟ وما دام الله تعالى لا يعتبر العقلاء مجرمين إذا لم يبعث إليهم نبي، فكيف يمكن أن يعذّب الأطفال الذين لم تَقُمْ الحجة عليهم حتى ببعثة النبي؟

إذًا فقد تبين من هذه الآيات جليًّا أن القرآن الكريم يرفض دخول الأطفال في النار وأنها عقيدة باطلة تماما.

أما السؤال: إذا كان أولاد المؤمنين والكافرين غير مكلفين، فماذا يكون مصيرهم؟ فليكن معلومًا أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة كما يؤيد ذلك حديث المعراج، والعقلُ أيضا يفتي بصحة هذا الحديث وقوته. إنه حديث متواتر ومتعدد الإسناد. لا شك أنه مضطرب في بعض أجزائه، إلا أن المحدِّثين قد اعتبروه قويًا جدًّا. إذًا فحديث المعراج دليل على أن أولاد المؤمنين سيدخلون الجنة. ثم إن العقل يفتي بضرورة دخول أولاد المؤمنين الجنةَ من أجل سرورهم وسكينتهم. يقول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾(النحل ٣٢)، وإن أكبر أمنية للأم أن يرجع إليها ولدها. لقد رأينا أن بعض النساء إذا أتاهن أجلهن قلن: سوف أُلحَقُ الآن بابني الذي قد مات. فثبت أن العقل أيضا يفتي بأنه من أجل سكينة الأمهات واطمئنانهن لا بد من لقاء أولادهن في الجنة، أيًّا كانت نوعية هذا اللقاء، سواء كخدمٍ أو دُمًى، اللهم إلا أن يكون هؤلاء الأولاد من أهل النار وأعداء لله ولرسوله، لأن المؤمن يقطع صلته عن مثل هؤلاء الأولاد، ولا يفكر بلقائهم أبدا. باختصار، إذا كان الولد بالغًا كافرًا مشركًا فلن يبالي المؤمن أينما يدخله الله تعالى، ولن يتأذى بدخوله النار؛ لأنه قد نفض حبّه من قلبه. أما الولد غير البالغ الذي مات في سن البراءة، فإن العقل والفطرة يقتضيان أن يُسكَن مع أبويه المؤمنَينِ في الجنة. بل الحق أن الجنة لن تكون جنة للأم إلا إذا كان معها أولادها. وبناء على هذا الدليل العقلي يمكن القول إن حديث المعراج مطابق للفطرة تماما.

أما أولاد الكفار والمشركين، فلا شك أن هناك أحاديث تؤيد أنهم يدخلون النار، غير أن هناك أحاديث أخرى توضح أنهم سيدخلون الجنة مثل حديث المعراج الذي ورد فيه أن أولاد المشركين كانوا مع إبراهيم عليه السلام في الجنة. وقضية أولاد المشركين ليست ذات أهمية، إلا أن قضية أولاد المؤمنين ذات أهمية بلا شك. وفيما يتعلق

بأولاد المشركين فهناك أحاديث تقول بدخولهم في الجنة، وأحاديث تقول بدخولهم في النار، ولذلك فإننا نرجّح الأحاديث الأولى لقوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف١٥٧)، لأن القرآن الكريم قد بين لنا مبدأً أساسيًا أنه إذا تعارض أمران فخُذوا الأقربَ إلى رحمة الله، لأنها غالبة على غضبه. فحيث إن الأحاديث بنوعيها تروى عن الرسول ﷺ ولا نستطيع ترجيح بعضها على بعض، فالدراية تفتي بترجيح الأحاديث التي تقول بدخولهم في الجنة عملاً بالمبدأ القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهناك تأويل آخر في رأيي، وهو أن أهل النار عندما يخرُجون منها ويدخلون الجنة فلا يمكن أن يتبوأوا فيها المقام الذي تبوأه من دخلها مباشرة، فربما سيميّز الله بين من دخل الجنة مباشرة وبين من لم يدخلها مباشرة بأنه سيُسكِن أولاد الفئة الأولى الصغار معهم أيضا، ولو بصفة خدم، أما الذين يدخلون الجنة فيما بعد فأولادهم الصغار يُفنوْن؛ إذ لا يستحقون الجنة استحقاقا ذاتيًّا إذ لم يعملوا شيئًا، كما لا ينفعهم الاستحقاق غير المباشر أي بسبب آبائهم.

أما إذا كانت هذه القضية ستُحسَم بحسب ما ورد في الحديث أن نبيًا سيُبعث إلى الأولاد يوم القيامة لاختبارهم (مسند أحمد)، فلا قيمة للبحث السابق، إذ لا يبقى عندها فرق بين أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين، وسيكون المراد من حديث المعراج عندها أن أولاد المؤمنين والمشركين كلهم سيظلون في الجنة تحت رعاية إبراهيم عليه السلام كلُعَب إلى يوم البعث، ثم سيُبعث إليهم يوم القيامة نبيٌّ لاختبارهم، فيدخلون الجنةَ بتصديقه أو النارَ بتكذيبه.

أما إذا فسّرنا هذا الحديث بمفهوم آخر – كما فعل المسيح الموعود عليه السلام إذ يرى أن أمر إيمانهم سيُحسَم يوم القيامة بحسب فطرتهم – فنقول إن الذين يستحقون النار سيدخلونها حتمًا، أما أولادهم الصغار فلو شملهم الفناء ترحمًا عليهم فلا ظُلْمَ في هذا، لأن إسكان أولاد المؤمن في الجنة تأليفًا لقلبه هو الرحمة بعينها، أما الكافر فحيث إنه قد فقد سكينته بدخوله النار سلفًا ففي فناء أولاده رحمة له لا ظلم.

إذًا، فأولاد المؤمنين سيسكنون مع آبائهم في الجنة ولكن أولاد الكافرين يفنون كالحيوانات، ويصيرون ترابا. ولو سلّمنا بهذا المعنى لتوافق القولان، وبدا رأي الإمام أحمد السرهندي – رحمه الله – أقرب إلى الصواب.

أما السؤال: بأي شكل سيسكن هؤلاء الأولاد في الجنة، فهو نقاش نظري فقط، فإن الله وحده يعلم كيف يُسكنهم فيها، ولا دخل لنا في ذلك. غير أنه قد انكشف علي بالتدبر في آيات من القرآن الكريم أنه لن يتمتع بنعماء الجنة حقًّا إلا البالغون، أما الصغار فيُسكَنون فيها من أجل سكينة آبائهم البالغين. كنت أظن من قبل أن الأولاد سيسكنون في الجنة كما يسكن فيها آباؤهم، ولكن هناك فرق بينهم وبين آبائهم بهذا الشأن. أما الآية الأولى التي تشير إلى ذلك فهي قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(الطور: ٢٢)، والآية الثانية هي قوله تعالى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(الرعد ٢٤). ثم هناك قول الله تعالى الذي هو عبارة عن دعاء الملائكة، وهو ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(غافر: ٩).

فنرى في كل هذه الأماكن أنه قد وردت فيها ألفاظ ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أو ﴿بإيمان﴾، مما يدل على أن هناك فرقًا بين الكبار والصغار فيما يتعلق بدخول الجنة. فلأن أرواح الصغار لن تكون متطورة بشكل كامل فلا يدخلون الجنة عن استحقاق، وإنما يُدخَلونها تسكينًا لآبائهم، ولذلك قد انتقل ذهن المفسرين إلى أن الصغار سيكونون في الجنة كالخدم. أما أنا فلا أسميهم خدمًا بل أسميهم لُعَبًا، لأن أرواحهم لن تكون متطورة حتى تستمتع بنعماء الجنة حق الاستمتاع. ثم إن الله تعالى قد أخبر هنا أن الملائكة سيستقبلون أهل الجنة على أبوابها قائلين: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(الرعد:٢٥)، والملائكة لن يسلّموا إلا على من يكون ممن آمن أو ممن صلح، والله تعالى قد ذكر هنا ﴿واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ و﴿ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾، والصغار لم يؤمنوا ولم تتطور كفاءاتهم بعد، وبالتالي لن يتبوءوا في الجنة المقام الذي يتبوأه الآخرون ممن بلغوا أَشُدَّهم. فثبت أن

الكبار سيدخلون الجنة استحقاقًا، أما الصغار الذين ماتوا في طفولتهم فلو دخلوها بغير أي اختبار زائد، فإنما يُسكَنون فيها ثلَجًا لصدور آبائهم، أيًا كان شكلهم هناك ومهما كانت درجة روحانيتهم، فهذا سر من أسرار الله تعالى لا حاجة بنا للخوض فيه.

وكما قلتُ، لم يخطر هذا المعنى ببالي من قبل، وكانت تأخذني الحيرة دائمًا إذ كنت أقول: لماذا يُسكَنون في الجنة خدمًا، ولكن بعد التدبر في هذه الآيات تبين لي أن أرواحهم لن تكون متطورة بشكل كامل، ولذلك فإنهم رغم دخولهم في الجنة سيختلفون حالاً عن الآخرين، سواء سميتموهم خدمًا أو لُعَبًا.

والجدير بالذكر أيضًا أن هناك مسألة أخرى تُستنبط – ضمنيًا– من هنا، وهي أن النبي ﷺ قال: إن إسلام المرء يمحو كل ما ارتكب في زمن كفره من ذنوب. هذه مسألة شهيرة ومذكورة في الحديث، غير أنها بحاجة الى شيء من التعديل في رأيي، لا أسميه تعديلاً إصلاحيا، بل أسمّيه تعديلا إكماليا. فقد ورد في الحديث أن قيس بن عاصم جاء النبي ﷺ وقال يا رسول الله، لقد وَأَدْتُ بعضَ بناتي في الجاهلية. فقال ﷺ: أَعْتِقْ عبدًا عن كل موءودة. قال: يا رسول الله، إني صاحبُ إبل، وليس صاحبَ عبيد، فهل أنحَرُ عن كل موءودة. فقال ﷺ: فانحَرْ عن كل واحدة منهن بُدنةً. (ابن كثير، والمعجم الكبير للطبراني، بابُ الْقَافِ: قَيْسُ بن عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيُّ، رقم الحديث ١٥٢٥٧)

يتضح من هنا أن الإنسان لو أدى كفارةً عن ذنوبه التي غُفرت له نتيجة إسلامه وتوبته، ولكنها لا تزال تثقل على قلبه فيؤنبه ضميره بسببها، لكان ذلك أدعى لتكميل روحانيته.

الآن أنقل حديثا آخر بصدد الوأد يجب إلقاء الضوء عليه. فعن سعيد بن أبي أيوب قال: حدثني أبو الأسود عن عروة عن عائشة عن جُذامة بنت وَهَب أخت عُكاشة قالت: حضرتُ رسولَ الله ﷺ في ناس وهو يقول: "لقد هممتُ أن أنهى عن

الغَيلة✪، فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يُغيلون أولادهم ولا يضرّ أولادهم ذلك شيئا. ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك الوأد الخفي". (مسند أحمد: حديث جذامة، ومسلم: كتاب النكاح، وأبو داود والترمذي: كتاب الطب، والنسائي، كتاب النكاح)

وبناء على هذه الرواية قال البعض حيث إن العزل وأد خفي فيجب أن يُعاقب صاحبه بعقوبة ما.

ولكن استنتاجهم من هذه الرواية غير سليم، فأولاً: إذا كان العزل ممنوعًا لكونه وأْدًا خفيًا فيجب أن يكون جماع الحامل أيضا ممنوعًا، ولكنا لا نجد حرمة جماع الحامل، مع أنه وأدٌ قطعيٌ ويقيني. وثانيًا: هناك أحاديث تجيز العزل حيث ورد أن النبي ﷺ سُئل عن العزل، فقال: لا عليكم أَلَّا تفعلوا، فإنه ليست نَسَمةٌ كتب الله أن تخرُج إلا وهي كائنة. (البخاري، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا). ولما كان العزل جائزًا بحسب الحديث فيكون المراد من هذا الحديث – رغم كونه حديثًا قويًا – أن العزل جائز عند الضرورة فحسب، ومن لجأ إلى العزل بغير ضرورة فقد قام بوأد خفي، بمعنى أنَّ الذي يعزل عزلاً فيه انقطاع نسل فهو مجرم وآثم عند الله تعالى، وإلا فإن العزل جائزٌ في بعض الحالات. فمثلاً هناك شخص قوي، ولكن زوجته مريضة، وهو لا يقدر على الزواج بثانية، فقد خلق الله تعالى في هذا الإنسان القوة الشهوانية من ناحية، ومن ناحية أخرى يحذّره الطبيب من خطر الحمل على حياة زوجته؛ فماذا يفعل؟ الحق أن العزل ليس جائزا له فحسب، بل إسقاط الحمل جائز لو حملتْ زوجته. بل لقد سمعتُ المسيح الموعود عليه السلام يقول إن مثل هذه المرأة إذا لم تُسقط حملها وماتت بسببه فسوف تُعتبر منتحرة. لقد قال عليه السلام: يجب إسقاط الجنين في هذه الحالة فإننا لا نعلم عن الجنين ولا عن مصيره وعاقبته شيئا، ولكنا نعلم حتمًا أن أُمَّه حيّةً تُرزق، والحفاظ على حياتها يفرض علينا إنقاذها والخلاص من الجنين. أما إذا لجأ أحد للعزل أو إسقاط الحمل خشيةَ إملاق فهو يرتكب حرامًا.

✪ أغالَ فلانٌ ولده: إذا غَشِيَ أُمَّه وهي ترضعه. (مختار الصحاح)

باختصار، إن فتوى جواز العزل أو عدمه يتعلق بحالة المرأة، فلو تم العزل عند الضرورة فهو جائز، أما بدون ضرورة فهو مكروه، ولو تمَّ لِقَطْع النسل فهو حرام؛ فالأوربيون مثلاً يلجأون إلى العزل لقطع النسل فقط، ولأن هذا يدمر الأمة فهو غير جائز وحرامٌ يقينًا. وإذا قام أحد بالعزل بدون ضرورة فهو يرتكب مكروها. وإذا لجأ أحدٌ إلى العزل لضرورة حقة فلا سبيل عليه.

باختصار، لهذه المسألة ثلاثة جوانب: إذا جُعِلَ العزل سببًا لتدمير النسل فهو حرامٌ، وإذا لم يؤدِّ إلى تدمير النسل ولكنه تمَّ بدون ضرورة فهو مكروه، وإذا تمَّ لإنقاذ حياة المرأة أو لضرورة مماثلة أخرى أجازها الشرع فهو جائز. فليس كل عزل وأدًا خفيًا، إنما يُعَدُّ العزل جريمة إذا أدى لدمار الأمة كما نرى في هذه الأيام في فرنسا وفي غيرها من البلاد حيث أدى إلى نقص في تِعداد السكان بشكل خطير، وأصبح هذا الشعب ذليلاً مقهورًا أمام الشعوب الأخرى. ولذلك قال النبي ﷺ: "تَزوّجوا الوَدودَ الوَلودَ" (النسائي، كتاب النكاح).. أي تزوّجوا من النسوة اللواتي هن ودودات ويُنجبن بكثرة، لأن ذلك يُساعد على رقي الأمة.

وأما إذا طبقنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ على القيامة فيكون لكلمة ﴿سُئِلَتْ﴾ مفهومان: أولهما أن وائدها سوف يُسأل، وثانيهما أنَّ الموءودة ستُحيا مرة أخرى - ولو لبعض الوقت وستفنى بعدها كما ستفنى الحيوانات - لكي تُسأل، بيد أن قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ إنما يُشير إلى أن وائدها سيُسأل عنها.

هذا، وككل النبوءات الأخرى الواردة في هذه السورة قد تحققت هذه النبوءة أيضًا في هذا العصر، حيث أخبر الله تعالى هنا أنه سيأتي زمان يتم فيه الحظر على وأد البنات بسن القانون، وسيُعاقَب الوائد بموجبه. وبالفعل قد سنَّت الحكومة البريطانية عام ١٨٧٢ قانونًا بهذا الشأن، وهكذا قد تحققت هذه العلامة المتعلقة بالزمن الأخير.